

الفصل التاسع

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandi.com

٥- الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة^(١):

ولمَّا كُنْتُ فِي تلك الفترة، بَدَتْ أُمُورٌ وَأَسْبَابٌ دَلَّتْ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْإِنْتِقَالِ وَمُقَدِّمَاتِ أَذْنَتِ بِالزَّوَالِ، فَأَوَّلَ ذَلِكَ نِفَاقُ أَهْلِ الْيُسَانَةِ لَعَلَّةَ نَذَرُهَا، وَأَرْقُ سَبَبٍ لَمْ يُؤَيِّهِ لَهُ، وَذَلِكَ أَنِّي، لَمَّا أَمَرْتُ بَيْنِيَانِ السُّورِ الْمُتَّصِلِ بِالْحَمْرَاءِ، وَدَبَّرْتُهُ عَلَى تِلْكَ النِّصْبَةِ الَّتِي أَضْرَبْتُ عَنْ شَرْحِهَا لِأَشْتِهَارِهَا هِيَآتِ السَّعَادَةِ أَنْ وَجَدَ الْبَنَاءُونَ فِي الْإِسَاسِ قُمُوقًا مَمْلُوءًا ذَهَبًا أَعْلَمُونِي بِهِ، فَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ، لَقِيتُ فِيهِ ثَلَاثَةَ آلَافِ مِثْقَالِ جَعْفَرِيَّةٍ، فَاسْتَبَشَرْتُ بِهَا وَتَفَاءَلْتُ بِنَجَاحِ الطَّلِبَةِ، وَالدُّنْيَا تَسْخَرُ بِنَا كَمَا سَخَرَتْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَقُلْتُ: «مَنْ أَسَاسُهُ يَكُونُ بُنْيَانُهُ!».

وَكَانَتْ دَارُ أَبِي الرَّبِيعِ الْيَهُودِيِّ الْخَازِنِ لِلْأَمْوَالِ فِي دَوْلَةِ جُدَى - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَبْنِيَّةً عَلَى ذَلِكَ الْإِسَاسِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ مِنْ مَالِهِ الْمَدْفُونِ، فَأَتَى ابْنُ الْمَرَّةِ مُتَنَصِّحًا بِالْأَمْرِ، وَيَقُولُ: «أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِهِ، يَكْشِفُ لَكُمْ سَائِرَ دَفَائِنِهِ» فَخَاطَبْنَا عَنْهُ لِيَرِدَ عَلَيْنَا فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، وَكَانَ صِهْرُهُ ابْنُ مِيمُونٍ، كُنَّا قَدْ قَدَّمْنَاهُ عَلَى يَهُودِ الْيُسَانَةِ بِوَجْهِ الْأَمَانَةِ، وَأَسَدَيْنَا إِلَيْهِ جَمِيلًا مِنَ التَّنْوِيهِ بِهِ، فَاسْتَمَالَ بِهَا أَقْوَامًا مِنَ الْغُرَبَاءِ، يَصُولُ بِهِمْ عَلَى أَهْلِ مِلَّتِهِ، وَكَانَ خَبِيثًا، فَأَحْسَنَ بِالْقِصَّةِ، وَوَجَسَتْ نَفْسُهُ مِنْهَا، وَاعْتَذَرَ عَنْ صِهْرِهِ، وَسَاءَ لَذَلِكَ ظَنُّهُ، وَخَشِيَ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَى مَا لِي بِهِ.

(١) اليسانة: بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غرناطة، تقع شمالي غربي مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل (الإحاطة ٣ / ٢٩٩ حاشية ٢).

وَوَافَقَ قَبْلَ ذَلِكَ، عِنْدَ انْصِرَافِنَا مِنْ لَيْسِيْطٍ، أَنْ فَرَضْنَا عَلَى أَهْلِ الْيُسَانَةِ ذَهَبًا كَثِيرًا بِاسْمِ التَّقْوِيَةِ لَمْ تَجْرِ عَادَتُهُمْ بِهِ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى الصَّحَّةِ وَالْانْطِبَاعِ، فَفَقَرَتِ لَذَلِكَ أَنْفُسُهُمْ، وَوَجَدَ ابْنُ مَيْمُونِ الْمَذْكُورَ السَّبِيلَ إِلَى إِغْرَائِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى النِّفَاقِ، فَأَجَابُوهُ، وَدَخَلُوا فِي السَّلَاحِ، وَنَادَى فِيهِمْ أَنْ: «جِدُّوْا، مَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فِي حِمَايَةِ أَمْوَالِكُمْ!» وَافْتَضَحَ بِذَلِكَ ابْنُ مَيْمُونِ، وَسَبَقَتْ لَهُ جَنَائِيَّةٌ فِي قَتْلِ عَامِلِنَا ابْنَ أَبِي لَوْلَا عَلَى الْمُسْتَخْلَصِ رِيَاسَةً وَعِدْوَانًا، وَامْتَنَعَتِ الْيُسَانَةُ بِالْجُمْلَةِ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ، لَمْ أَجِدْ بَدَأًا مِنْ مُدَارَاةِ الْأَمْرِ، وَاشْتَرَطْتُ مُؤْمَلٌ بِإِصْلَاحِهِ، وَنَهَضُ، ثُمَّ إِنِّي عَمِلْتُ رَأْيِي بَعْدَهُ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَلْقَى إِلَّا أَحَدَ وَجْهَيْنِ: إِمَّا طَاعَةَ عَلَى غَشٍّ، أَوْ عَصِيَانًا، وَأَيُّهُمَا كَانَ، فإِرْسَالُ الْعَسْكَرِ إِلَيْهِ وَاجِبٌ، وَشِدَّةٌ وَتَرْهِيْبٌ، لِيَعْلَمُوا قَدْرَ مَا جَنَّوْهُ، وَخَرَجْتُ بِنَفْسِي فِي أَثَرِهِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَى الْأَنْدَابِ، فَإِذَا بِمُؤْمَلٍ قَدْ أَقْبَلَ مِنْصَرِفًا، رَدْنَا عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ، وَقَالَ لِي: «قَدْ أَصْلَحْتُ الْأَمْرَ مَعَ ابْنِ مَيْمُونِ، وَنُهُوْضُكَ إِلَيْهِ لَا يَزِيدُ الْقَوْمَ إِلَّا نِفَارًا، وَرَبِّمَا اسْتَعَانُوا بِعَسْكَرِ ابْنِ عَبَّادٍ، لَا سِيَّمَا أَنَّهُ الْآنَ بِقَرْطَبَةٍ، وَلَيْسَتْ تُؤْخَذُ بِإِحْصَارٍ وَلَا قِتَالٍ!» عَلَى أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ لَا يَجِيهُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ كُلَّهُ، وَلَا اِشْتَهَرَ بِذَلِكَ إِلَّا مَا كَانَ النَّاسُ يَذْكُرُونَهُ، وَابْنُ مَيْمُونٍ يَفْتَخِرُ بِهِ وَيُطْمَعُ بِهِ أَهْلُ الْيُسَانَةِ.

فَقَبِلْتُ قَوْلَ ابْنِ مُؤْمَلٍ، وَانْصَرَفْتُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْحَضْرَةِ، وَقُلْتُ: «خُرُوجِي إِلَى هُنَا أَوْ وَصُولِي إِلَيْهِمْ سَوَاءٌ! إِذَا أَرَدْنَا التَّهْيِيْبَ، فَقَدْ وَصَلْنَاهُ!» ثُمَّ قُلْتُ لِمُؤْمَلٍ: «صِفْ عَلَيَّ مَا انْفَصَلْتُ!» فَقَالَ: «إِنَّ ابْنَ مَيْمُونٍ رَعِيْمُهُا

عَدَدَ أَشْيَاءٍ أَنْكَرَهَا مِنَ الْإِرْسَالِ فِي صَهْرِهِ، وَهَذِهِ الْفَرَضَةُ الْعَظِيمَةُ، وَسَائِرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْقَابِ الْإِزْمَةِ، فَضَمَنْتُ لَهُمُ الصُّكُوكَ بِرَفْعِ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَلَابِنِ مَيْمُونِ فِي خَاصَّتِهِ» وَأَمَرْتُ بِعَقْدِهَا وَالْإِرْسَالِ بِهَا، وَقَرْتُ الْجِبَالَ قَرَارَهَا.

وَوَجَسْتُ نَفْسِي مِنْ ابْنِ مَيْمُونٍ لِإِظْهَارِهِ الْخِلَافَ وَالْإِعْلَانِ بِذَلِكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ، وَأَنْ لَا طَاعَةَ تَصِحُّ لِي مَعَهُ، وَسَيُؤْثِرُ أَمْثَالُ هَذِهِ، فَدَبْتُ إِلَى الْمُدَاخَلَةِ مِنَ الْيَهُودِ الْمُخْمُولِينَ فِي زَمَانِهِ، وَوَعَدْتُهُمْ بِالْإِحْسَانِ، وَتَكَرَّرَ فِي الْوَسَاطَةِ ابْنُ سَيْقَى، حَتَّى أَبْرَمْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَمَلْتُ، وَكَانَ أَخَذَ ابْنَ مَيْمُونٍ يَسِيرًا، لَا عَصَبَةً لَهُ، وَهُوَ غَافِلٌ، وَكَانَ الْوَسَاطَةُ أَيْضًا ابْنَ الْمَرَّةِ مَعَ أَبِي الْعَبَّاسِ الْحَكِيمِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا نَقِمَهُ مُؤَمِّلٌ لَانْجِيَاشِهِ عَنْ ذَلِكَ، إِلَى أَنْ وَرَدُوا الْحَضْرَةَ عَلَى عَادَتِهِمْ، وَأَمَرْتُ بِثِقَافِهِ مَعَ ابْنِهِ بِرِضَاءٍ مِنَ الشُّيُوخِ، وَأَمَرْتُ أَنْ لَا زَعِيمَ فِيهِمْ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا الْكُلُّ مِنْهُمْ أَمْنَاءُ مَنُوهُ بِهِمْ، فَشَكَرُوا وَرَضُوا، وَخَاطَبْتُ عَامَتَهُمْ تُعَلِّمُهُمْ بِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ، وَتَهَدَّئْتُ الْأَحْوَالَ وَقَرَّتُ، إِلَى أَنْ تَلَفَ الْكُلُّ.

٦٢-قضية زناته:

وَقَضِيَّةٌ أُخْرَى بَعْدَ هَذِهِ فِي أَمْرِ زَنَاتَةِ: إِنَّهُ، لَمَّا أَعْمَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْفَتَنِ الْعَارِضَةِ، رَأَيْتُ أَنَّ الْإِهْتِبَالَ بِالْمَعَاوِلِ مِنْ أَكْدٍ مَا يَجِبُ النَّظَرُ فِيهِ، كَالَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْمَنْظَرِ فِي عُدْدِهَا وَمَا يُصْلِحُهَا، وَأَنَّ الْأَوَّلَى اسْتِصْلَاحٌ مَا فَسَدَ مِنْ نَفُوسٍ قَوَادِمِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكِلَى لَنَا مَعْقِلًا قَطُّ غَيْرُ صِنْهَاجَةٍ وَالْوَصْفَانِ وَالْعَبِيدِ، مَا خَلَا زَنَاتَةَ: فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَجْنَادُ الْحَضْرَةِ.

وَكَانَ الصَّنْفُ الْمَذْكُورُ قَدْ ضَعُفَ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ النِّقْصَانُ لِمُطَالِبَاتِ

جَرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ وَرَاءِ الدَّوْلَةِ كَالْيَهُودِيِّ وَغَيْرِهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ أَلَا
وَلَايَةَ تَتَهَيَّأُ لَهُمْ مَعَ صِنْهَاجَةٍ لاحتِقَارِهِمْ لِإِيَاهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ مِنْ تَوَلِيَةِ مِثْلِهِمْ،
فَكَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الصَّنْفِ الْبَرَّانِيِّ كُلِّهِ، وَلَمَّا جَرَى عَلَى الْيَهُودِيِّ مَا جَرَى
مِنْهُمْ، اعْتَقَدَهَا النَّايَةُ فِي نَفْسِهِ، وَخَشِيَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَجَعَلَ نَفْسَهُ فِي
مَطَالِبَتِهِمْ، وَتَبْدِيدِهِمْ، وَإِنْزَالِهِمْ عَلَى الْإِنْزَالَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَمَنْ كَانَ بِيَدِهِ
شَيْءٌ، تُسَبَّبُ إِلَيْهِ وَأَزِيلَ عَنْ يَدِهِ، فَأَذْرَكَهُمْ النِّقْصَانُ وَالْقَلَّةُ، وَزَادَ فِي زَنَاتِهِ،
وَقَوِيَتْ أَحْوَالُهُمْ وَإِنْزَالَاتُهُمْ، عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ خَيْرَ جُنْدِ
الْأَنْدَلُسِ، وَالْمَوْثُوقِ بِهِمْ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ، وَكَانَ الصَّنْفُ كَثِيرًا، لَا يَعْدَمُ
ضَمُّهُمْ مَنْ لَهُ مَالٌ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «هَؤُلَاءِ الْقَوَادِ الَّذِينَ عَلَى الْحَصُونِ، وَإِذَا كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ
فَاسِدَةً، وَلَا يَتَذَكَّرُونَ مَعْنَى عَلَى نِعْمَةٍ طَائِلَةٍ، فَكَيْفَ يُمَسْكُونَ الْمَعَاقِلَ، أَوْ
بَأَى قَلْبٍ يَجِدُّونَ مَعِيَ؟ وَإِنَّهُ لَا عِوَضَ مِنْهُمْ فِي الثَّقَةِ لِلْحَصُونِ وَإِنْ زَنَانَةً
هَؤُلَاءِ الْمُتَأَصِّلِينَ لَا ثِقَةَ فِيهِمْ لِلْمَدِينَةِ الْفُوقَى وَلَا لِلْحَصُونِ، أَكْثَرَ مِنْ خِدْمَةِ
الْجُنْدِيَةِ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَأَنَا جَدِيرٌ أَنْ أَشْرِكَ مَنْ ضَعْفُ مِنْ صِنْهَاجَةٍ
بِهَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكْتُهُمُ الْعَنَاءَ وَيُمْسِكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنْزَالَ خَمْسَةِ فُرْسَانٍ
وَسِتَّةٍ، ثُمَّ مَنْ قَنَعَ بِمَا بِيَدِهِ بَقِيَ، وَمَنْ لَمْ يُرِدْ، لَمْ نَعْدَمْ مِنْهُ الْعِوَضُ!»
فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، وَأَشْرَكْتُهُمْ، وَكَانَ فِي هَذَا كُلِّهِ تَحْرِيكٌ لِلشَّرِّ وَالْقَالِ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى

فَاكْثَرُ مَا يَجْنَى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ

فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ، قَلَقُوا، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ، فَكُنْتُ، مَتَى دَعَوْتُهُمْ

إلى خِدْمَةِ نَجْدِهِمْ عنها عاجزين: من أشركَ ومن لم يُشركَ، فامتحتُ على ذلك، فقليل لى: «إن كِبَارَهُمْ يفسدون صغارَهُمْ! ولو أنك تخرج وغوغائهم»^(١) من البلدة، لصلح لك سائرُهُم!».

فأمرتُ بإخراج ثلاثة أنفس ممن يتهم منهم، وكان المأمورَ بذلك لبيبُ الخصى، صاحبُ المدينة ذلك الوقت، وثقناه لتربيتنا له، وكان فى المجلس أقوام يحسدُهُم ويتهمُهُم على نفسه أن ينقلوا طريقته السيئة، فأصاب الفرصة للخراب، وأرسل من قبله إلى أولئك المخرجين، وإلى من سواهم من بنى عمَّهُم، يقول لهم: «إن الطلبَ قد وقَّع فيكم من مجلس السلطان، وأمرتُ بإخراجكم، فلا توهنوا، واجتهدوا فى التعصب عليه وترويعه! وأنا معكم! فإنه، إذا رأى جماعتكم، رجع إلى قولكم!» فلم يكن إلا بعد الأمر بساعة، وإذا بجماعة الجند قد أقبلوا إلى باب المدينة يقولون: «إمّا أن يردَّ شركتنا، وإمّا فالكلُّ راحلون عنه، مُستقلون إلى غيره!» وأتى الفاسقُ لبيبُ وأصحابه المُتفقون معه، يقيم حجَّتَهُم، ويُعضد قولَهُم، ويخوفُ منهم، فميزت الأمر، وعلمتُ أن هذه جعجةٌ لا يرجع فيها إلّا إلى رأى، فأظهرتُ الشدة، وقلتُ: «لستُ براجع عمّا أبرمتُ، فتكون نفوسُ الذين أشركتُ معهم مُنصرفَةً إلى مثل نفوسهم! فمن شاء، فليمرَّ، ومن شاء فليبق!» فلمّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ.

ومؤمل، فى هذا كله، على اتفاق مع لبيب، يدخل فى رؤوس الجند ويقولون لهم: «إنَّ هذا من قبل غيرنا، ونحن أبرياء!» ويرونهم الشفقة من الأمر والطعن على، وصحَّ ذلك عندى مع طائفةٍ من شيوخ العبيد أصحاب

(١) فى المطبوع: «غوغائهم».

مُؤْمَلٌ، وعملت حساب زناة أنهم لا يزولون بالكل، وأن ذلك ترهيب، وأن الرجوع عما أمرتُ به يضرهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكون لهم الصولة والحماسة في المعصية، وأن انقيادهم للأمر واستعدادهم بعده أشبه، وللحجة عليهم أعزُّ وأبهى.

فلما كان يوم آخر، خرجتُ بنفسى إلى عَرْضِهِمْ كَيْ لَا يَظُنَّ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فأمرت بالبريح عليهم وإحضار الزمام، لنعلم من صحَّ مُضِيهِ وعوده فوجدتُ الكلَّ مجتمعين، قد انصرفوا متقطعين ليلاً، لم يغب منهم أحد فوق الثلاثة الذين أمرت بإخراجهم، وجعلوا يعتذرون ويتصلون، فقلتُ: «الله أكبر! هذا أشبه واليقُ بالمملكة!» ورأيت مؤملاً وليبياً وغيرهما قد عزت عليهم طاعتهم مؤملين أن لو كانت طامة لا ترفع:

والعين تبصر فى عينى مُحَدِّثُهَا

إن كان من يجزئها أو من أعادها

٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة^(١):

ولما قرَّ أمرهم قراره، جاء مؤمل فى إثر ذلك يقول: «إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة فى البقاء معك! غير أنهم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزودوا به! فلا فائد تُنزل عليه غيرهم، ولا رجال بقوا معك؟» وكنتُ إذ ذاك ناظراً منه بعين الثقة؟ فعمل قوله فى نفسى، وقلتُ: «لا يخلو هذا القول عن وجهين: إما قد أطلع على ذلك منهم، فهى نصيحة، أو لم يطلع، فهو بغائلتة لا يدعهم، ويدخل هذا فى رؤوسهم، وتكون على فى

(١) لوشة: بالاندلس من أقاليم البيرة، وبها جبل فيه غار يصعد إليه (الروض المعطار).

ذلك الخسارة، وإن احتججتُ إلى العِوَض، لم يكن لى على ما نُتَزَلُّه ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله من النفقات على سائر الأمم! فلم يأتنى من هذه الكلمة نَعاس، وأمرتُ بإخراج كلِّ من فى رأسه حماقة فبلغ عدَّتْهم نحو المائة فارس، فخرجوا عن المدينة، وتصفَّتْ، ولم يبقَ فيها إلا مَنْ ينطاع لكلِّ أمر.

وعَمَلَ فى نفسى فَعَلُّ لَيْسَب وشيوخ العَبِيد، وصَحَّ عِنْدَى منهم وَفِيهِمْ أَنَّهُمْ عَوَّجُوا زَنَاتَهُ، وكانوا أَشَدَّ عَلَى من كلِّ أَحَدٍ، وجعل زَنَاتُهُ يَذْكُرُونَ ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: لا ذنب لنا! إِنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقَاتُهُ وَعَبِيدُهُ الَّذِينَ حَمَلُونَا عَلَى ذلك، لم نجترم عليه! وجَعَلُوهم فى وقت قيامهم يمشون على الأسواق، ويأمرون الناس بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلا وهو يُريد إدخالَ النصرارى!» فلم يَلْتَفِتِ الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقَاتِ الدولة وصِنَهاجَةٍ.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتُهُ، أَمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثنين من شيوخ العَبِيد الذين صَحَّ عِنْدَى إشعالُهم لهذه القضية، وثَقَّفْتُ لَيْسَبًا، فوافقَ إِخْرَاجَهُمْ وَمَوْمَلٌ خَارِجَ الْمَدِينَةِ، فلحقوا به، وقالوا له: «قد أَخْرَجْنَا! وغدا بِكَ هَكَذَا! فانظُرْ لنفسك!» فخرَجَ معهم من فورِهِ ذلك، قاصِدًا إلى لَوْشَةٍ، مع مَنْ اتفق معه مِثْلُ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ.

وكانت هذه تَفَقُّة قَدِيمَةٌ بَيْنَهُمْ مع بنى مَالِكِ عُمَالِ لَوْشَةٍ، أَنَّهُ، متى دهمهم أمرٌ، لَجَبُّوا إِلَيْهَا، فنهضوا من فَوْرِهِمْ ذلك قاصدين إلى لَوْشَةٍ، ولحقوا بها ليلًا، ودخل المدينة، ولم يمنعه أَحَدٌ لمكانتِهِ مِنَّا، وحسب القائد

ومن فيها أنه رسول، فصار في قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدُ والرعية، وصرخَ فيهم بالبكاء، وافتعل الكذب، وقال لهم: «لم أخرجُ من غرناطة إلا كما تَرَوْنَ: «بطوقى على عُنْقِي!» وتركتُ فيها النصارى قد استحوذوا عليها، وكُشِفَ عَنِّي! فاثبتوا معي ونُوجِّهُهُ إلى كلِّ سلطان: فمن أجابنا، اعتَصَدْنَا به!» وخاطَبَ بذلك حُصُونَ الغَرْبِ، يأمرهم بالخلاف، وأرسل إلى زَنَاتَةَ المُخْرَجِينَ، ليكونوا معه مُضَيِّقِينَ على غرناطة.

وإنَّ أَهْلَ الجِهَةِ مع أهل الحصون، لَمَّا سمعوا ذلك دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرَةِ مَنْ يَطْلُعُ صُورَةَ الأمر، فإن وَجَدَ خِلَافَ قوله، لم يُخْبِرُوا وجوههم معنا، وإن أَلْفَوْهُ حَقًّا، نظروا لأنفسهم، فأتوني أفواجًا مُعَزِّينَ ومُهَيِّئِينَ على السلامة من النصارى، ومُسْتَفْهِمِينَ جَلِيَّةَ الحال، فأخبرتهم بالأمر على وَجْهِهِ، ولم يروا شيئًا مِمَّا ذكر مؤمِّلٌ، فطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ، وعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالَفٌ مُنَافِقٌ، فبادَرَ الكلُّ إلى مُنَارَكَتِهِ، وسألوني عَسْكَرَ الحَضْرَةِ.

وكنْتُ، لما صَحَّ نِفَاقُهُمْ بِلَوْشَةٍ، قد أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا، وأرسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلًا تُوَمِّنُهُمْ مِمَّا خَافُوا، وتُحَذِّرُهُمْ قَبِيحِ العَاقِبَةِ فى إِيثارِ الفِتْنَةِ، وأتَى مُطْلِقُ إِلَيْهِمْ أَهَالِيَهُمْ، ويخرجون عن الحصون حيث شَاءُوا بِأَمَانٍ ووثائق، وهم فى هذا كُلِّهِ، لا يَزِيدُونَ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَهْدِيدًا، بَانِينَ عَلَى الشَّرِّ، طَالِبِينَ لِلشَّارِ بِلَا ثَارٍ، فلما يَثَسْتُ مِنْهُمْ، مع اتِّفَاقِ الحَصُونِ عَلَيْهِمْ، أرسلتُ بالعسكر، وقوَدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفُ بْنُ حَجَّاجٍ، سنذكر وَجْهَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بعد هذا، فنَهَضَ، فلم يكن إلا سَاعَةً وَصُولَهُ، وَجَزَعَ مَنْ مَعَهُ فى القَصْبَةِ،

وَحَلَّتْ عَلَيْهِمْ، ودخلها العسكرُ، وأَسِرَ فِيهَا هُوَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ، وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ.

وَأَمَرْنَا بِثِقَافِهَا وَسَوْقَانِ الْأَسْرَى، وَثَقَفْنَاهُمْ مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ، فَأَقْتَتِ السُّنَّةُ أَنْ قَتَلَهُمْ غَيْرَ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزْعًا، عَلَى أَنَّهُمْ كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ، فَأَثَرَتِ الْأَلِيقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْأَثَامِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَفُوتُ، وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ التَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، فَأَوْجَبَتِ السِّيَاسَةُ تَثْقِيفَهُمْ وَالشَّدَّةُ عَلَيْهِمْ، لِثَلَا تَكُونَ طَرَقَةً لَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ بَابٌ فَتَحَهُ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ، فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانُ فِيهِ.

وَخَاطَبُوا، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدَلُسِ، حَتَّى صَاحِبَ مَالَقَةَ، فَلَمْ يُجِبْهُمْ أَحَدٌ، فَلَمَّا يَشَسَ مُؤَمِّلٌ مِنْهُمْ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، يُزَوِّرُ^(١) عَنْدهُ الْأَمْرَ كُلَّهُ، وَيَكْذِبُ، وَيَقُولُ لَهُ: «لَمْ نَوْتَ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمْرَ النَّصَارَى، وَالْقِيَامَ بِدَعْوَتِكَ» حُجَّةٌ لَا تَقُومُ عَلَى سَاقٍ، وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نُعْمَانَ، فَانصَرَفَ لَمَّا عَلِمَ بِأَخْذِهَا.

٦٤- وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله:

وَكَانَ نُعْمَانُ الْمَذْكُورُ مِمَّنْ فَعَلْنَا مَعَهُ جَمِيلًا، وَأَحْسَنًا إِلَيْهِ لِحَرَمَةِ الْقَرَابَةِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ، وَزَالَ عَنَّا بَعْدَ إِعْمَالِهِ الدَّوَاحِلَ عَلَيْنَا فِي حَصُونِنَا الْغَرِيبَةِ، وَعَقَّدَهُ مَعَ أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الْمُرَابِطِينَ مَتَى دُعُوا، وَكَانَ لَهُ بِتِلْكَ الْجَهَةِ إِنْزَالٌ، فَتَمَكَّنَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، وَخَرَجَ عَنَّا بِسَرَّاحٍ ادَّعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنْ بِالْعِدْوَةِ مِيرَاثًا وَمَالًا يُرِيدُ اقْتِضَاءَهُ، فَأَبَحْنَا لَهُ

(١) فِي الْمَطْبُوعِ: «بُزُورٌ» بِالْبَاءِ فِي أَوَّلِهِ، وَلَا وَجْهَ لَهُ.

النهوض، وإذا به يسعى علينا، وقال للأمير: «نُفِيتُ من البلد من أجل نصيحتي لك ومحبتى فى دولتك!» أمر لم يكن منه حرفٌ، حتّى إن أطواقى، إن تكلمتُ، لسعتُ علىّ، للقدّر الذى شاءه الله، عسى لعاقبة محمودة إن شاء الله.

فعملت هذه المعانى كلّها فى نفس أمير المسلمين، مع ما صوّرتُ عنده بكثرة الأموال المكذوب عليها والمتنفقة فى طاعته والجهاد معه لو بقيت الحال.

٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله:

وإنّا فى تلك الفترة، رأينا من الصلاح النظر لمن مَعَنَا من البنات وتزويجهنّ قبل أن يفجأ أمرٌ، فيكنّ على غير عصمة ولا كفيل، فتخيّرنا لهما من بنى عمّهما شاكلة، منهم معدّ بن يعلى، للذى كان عليه من النجابة والعقل والمحبة، فصَدَدْنَا عن ذلك أهلُ دولتنا، وقالوا نصيحة وحسداً: «إن أنت تصاهرتِ إلى بنى عمّك، حمَلْتَهُم دالّة القربة مع المُصَاهَرَة على الظهور عليك وفساد حالك بصلاحهم، فإياك! وعليك بمن هو دون قيمتك، فإِراعى إحسانك، ويرى هذا منك كثيراً، ويرى عياله بعين مولاة، وإن هو تحرّك إلى شيء قعدت به دقّة شأنه، فلا أتباع يهاودونه» فقبلنا ذلك حذراً على الدولة، وقلنا: «من صلّح من قرابتنا، نُدرِك فعل الخير فيه دون مُصَاهَرَة تُظْفِيه!».

وكان من بعض خدَمَتنا مَنْ حَضَنّا على يوسف بن حجّاج، لعلمه بأخلاقه مدّة صحبته له، ووصّفه بصفات ظاهرها يشبه المشاكلة، وذلك أنّه قال: «فى الرجل انقباضٌ واستيحاشٌ من الناس، وبذلك تأمن من إجماعه

عليك، وفيه شحٌ كثيرٌ، لا يُخرجُ خَيْرَهُ من منزله، وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوافِقُ
مُعاشرَةَ العيال، وبه حرجٌ ونزقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية، وهو من نقصان البيان
وعى اللسان ما لا يطبى بذلك الناس لتألب، إن شاءه عليك، ولا نقض
لفعلك أو مقالك والرجلُ من أوساط الناس ومِمَّن لا يتمى إلى ملكٍ، ولا
تُحدثه نفسه بما لا أصلَ له فيه، فهو بين يديك كالكمأة التى إن شئتَ
قَلَعْتَهَا، لم تتعذَّرْ عليك من أصلِها، أو كالصَّمْغَةِ، إن شئتَ فرَغْتَهَا،
ظَهَرَتْ، وكانت لك المنة والخيار! والآخرُ هو تَرِيئُكَ ونشأتُكَ، وابنُ وزير
جدِّكَ، وله من بُعدِ الهمة وكرمِ النفس وحُسنِ السمْت والوقار على حال
الحدائث ما تُرَجى «بَرَكَتُهُ»، وليس بمُنْقَدٍ قدرُهُ، وإن أنهضتَه إلى أمرٍ، جدَّ فيه،
وانت آمنٌ من سوء العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابنه إلى درَجَةٍ تُقَرُّ
عينُهُ، والأولى أن يدعوك صِهْرُكَ «مَولَاي» من أن يكون لك مثلاً، فتشقى
أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لا يحتمل سِفِّين، ولا ندرى من السلطان فيكم، إلَّا
من ارتَضِيَّتْهُ وقدمتْهُ.

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أُمُرى
بالأحزَم، ووَكَلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهدُ الاستطاعة، ودون
جُهدِكَ لا تُلَام، والله أن يقضى بما شاء!».

ولَمَّا صار وكْدُ حَجَّاجٍ بتلك المنزلة، شَرِهَتْ نفسه إلى وزارة الدولة،
مَقْطَع من لم يميِّز المذهب، ولم تكن بغد وزارة سِمَاجَةٍ نستعمل لذلك
أحدًا، فكانه وقع فى نفسه التقصيرُ به، جهالةً من الإنسان بقدره له مُهْلِكَةٌ،
وترَكِه صيانةً قدره له فاضِحَةٌ.

٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله:

وكان أهل دولتنا على مذهب جهالة في هذه الأمور: إنَّ كلَّ أحدٍ منهم يُريد أن يعمل برأيه، وأن تجرى الأمور على هواه، فإن لم يتَّفَقْ ذلك له، صار في حيزِ الأعداء، ولو كان على مرغوبهم، ما اتَّفَقَ لرئيسِ عملٍ، ولا تَمَّ له شيءٌ، وكانوا قَبْلَ أيَّامنا قد شغلهم الخوفُ من صولة رؤسائهم: ما كانوا يَرَوْنَ السلامةَ غَنِيمةً، ولما تَمَّ لهم في أيَّامنا الأمنُ، وأنسيَتُهُم ما مضى، أدركهم الأشرُّ والبَطَرُ، إلى أن تطمح أنفُسُهُم لغير ذلك، وكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمنِ نسلم من اللائمة والعداوة، وخاننا القياس، وكذلك العاقلُ المُتَمَرِّنُ لا يَجِبُ له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّهُ بنفسه، ولا يعمل حسابَه وحده، فليس كلُّ النَّاسِ على مَذْهَبِكَ، ولا هواه مُطَابِقٌ لهواك! ولا محالة أن باختلاف الأهواء تَقَعَ العداوات، وباتِّفاقنا تكون المصاحبة وحسنُ المعاشرة، وأصدق الناس لك مَنْ يكابدُ معك، وداهاء مثل الذي دهاك، وإن كان من الأباعد، فلا تستريح إلا إليه، ولا تشكُّ هَمَكَ مع من لم يعنه ما عَنَّاكَ: فإِذَا سَاهَ عن حَدِيثِكَ، وقد أَكْثَرْتَ عليه، وإِذَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ، قد استهدفتَ إلى عَدَوَاتِهِ، وأَحْدَثْتَ في نفسه ما كنت غنياً عنه.

هذا طبع البَشَرِيَّة: فلا تسمع مِمَّنْ يُريك التحقيق بكلامه، فإنَّ الحقَّ ثَقِيلٌ على النفوس، والباطلُ إليها أسرع، وعليها أخَفُ، وَلَمَّا علم الشيطان حِيلَ الإنسان، لَمَجْرَاهُ منه بمنزلة الدَّمِ^(١)، أتاه من قَبْلِ هواه، ولا سبيلَ أن تَلْقَى أحداً عَدِيمَ الْعَقْلِ: كلُّ قَدٍ أَخَذَ من التجربة حصته، وحاز اختياره، وعَرَضُكَ عليه ما يَبْدُو إليك عَجْزٌ وكَلْفَةٌ: فإن كان رِيضاً، فهو بشأنه أبصر، ولعلَّ له

(١) في المطبوع: «الدم» بالذال، ولا وجه له.

عذراً، وأنت تلوم، فتولد عليه انقباضاً منك وتحفظاً لئلا يُريك الخلاف حتى يأتى بما اعتزم عليه، وإن ألفيته جاهلاً، فمن العناء رياضة الهرم، لم تزد أكثر من نقله عن وده، ولا يتنقل عن طبعه.

كيفما رويت في الأمر، أجده جهلاً من فاعله وكلفة، إذ لا تأديب يجعل بالمعلم ولا المتعلم، اللهم إلا من شورر في أمر، فعليه أن يعطى ما عنده من غير إلحاح، ولا يتمرن في انتظار طاعة، فيكون الناصح، إن سمع منه، تهادى على صداقته وخولف في غش، فما قام خيرك، يا زمان، بشرك!

لو أنى أعلم أن بخلاف يسير على القائل يتنقل إلى حيز العداوة، لم أثاره في أمر أبداً: وأكون قبل مشاورته مخاطراً حذراً الذي نخشى منه، أشد على من عاقبة الأمر المعروض عليه، فالعاقل يقيس على هذه المعانى ويحذر بها صديقه، فرب عداوة تتولد بأرق سبب، أو عداوة تعود إلى مودة، عند الحاجة إلى التعاون أو الانخراط في سلك واحد من عارض يعم أو مرغوب يرام؟ تكون الحاجة فيه سواء.

ولا خير في عقل لا يتصرف تارات، والمذهب السرمدي ركب طريقة الجهل، واقع في الورطات، ومن الحق ما يسمع، فلا تقوم حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة، والعاقل يتخير الأمور، فيتجنب معسورها، ويتوخى ميسورها.

٦٧- رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف:

وللقائل، إن يحتج على هذا النكاح: ما الذى أريد به؟ إن كنا غالبين، فقد استغنيا عنه، وإن كنا مغلوبين، لم يفد ذلك! يعترض هذا بعد تبيان ما وقع!

وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السُّتر، وإنه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكْتَفِيًا بامرأته، يُقْلَعُهَا إِذَا أَحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدَّةٌ، ويُقِلُّ طمعُ كلٍّ من يَشْرُهُ إلى خِطْبَتِهِمَا، فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلس رَامَ ذلك، وتوقعنا العاقبة إن فعلنا: تنشَّبنا فيما لا مَرَدَّ فيه، ولا يَنْفَكُ عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي أولى بالبذل في إقامة أود المملكة وما كنَّا بسبيله من الجهاد، وإن أَيْنَا، وقع الخلافُ والحَقْدُ من الطالب، بحيث لا يوافق، على أنه لم نحسب حساباً ما جرى، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (الأعراف: ١٨٨) وكان زماناً لم نحسب فيه حسابَ خَيْرٍ خَرَجَ منه مثقالُ ذرَّةٍ، ولا قَسْنَا على شيء من الشرِّ إلا ولم نبلغ مِعْشَارَ ما يكون منه، بل يدهى منه امرؤه وأفطعهُ.

ولقد قال المُطَالِبُونَ: إنَّ أمير المسلمين كان أَحَقَّ بهَا، وإنما فعلنا ذلك فراراً منه، وهذا من المُحَال أن يكون أَحَدٌ يَتَبَعِدُ الشَّرْفَ، وَيُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُهُ، فَيَأْبَاهُ! ولو أَنَّنِي أشعر بشيء من ذلك، وَتَرَى أَنَّ المَذْهَبَ فِي هَذَا، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ، وَإِلَيْهِ مُسَارَعَةً، وَعَلَيْهِ حِرْصًا.

ولم يكن مَنْ أَلَحَّ فِي ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَصِمِ - رحمه الله - فبادرتُ إلى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، خَوْفًا مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ، وإِنَّهُ، لَمَّا تَوَاتَرَتْ عَلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ، وَصُورَتْ عِنْدَهُ عَلَى غَيْرِ مَا هِيَ، عَمِلْتُ فِي نَفْسِهِ.

وانقطع رَجَاءُ مَوْمَلٍ بِلَوْشَةٍ مِنْ أَنْ يَجِيَّهَ سُلْطَانٌ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ، خَاطَبَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يَصِلِ الْخَطَابُ، وَهَيَّأَ الْعَسْكَرَ إِلَيْهَا مَعَ نَعْمَانٍ، حَتَّى انْقَضَى خَبَرُهَا، عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ.

٦٨- تدخل عبد الله في مسألة مرسية وغضب المعتمد:

واعْتَقَدَ الْمُعْتَمِدُ دُخُولَ النَّصَارَى بَلَدَهُ وَمُحَاشَاتَهُمْ لِجَهَاتِي، مَعَ مَا كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَمْرِ مُرْسِيَّةٍ، فَإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ قَالَ لِي مَشَافَهَةً، وَنَحْنُ عَلَى لَيْطٍ: «أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَنِيعَكَ وَأَدْخُلَ فِي جُمْلَتِكَ» وَقَالَ لِي رَسُولُهُ بَعْدَ ثِقَافِهِ: «لَوْ أَنَّكَ تَقْبَلُ مَنْ تَخْلَفُ فِيهَا، لِأَقَامَ الْخُطْبَةَ بِاسْمِكَ، وَكَانَتْ فِي طَاعَتِكَ! تَجِدُهُ وَيَجِدُكَ! فَأَيُّتُ هَذَا الْقَوْلَ جُمْلَةً، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «هَذِهِ نَصْبَةٌ لَمْ يَكُنْ أَصْحَابُنَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَرَامِ الشَّدِيدِ وَالْكَدِّ الْعَظِيمِ! رُدَّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَشَقَّاتُ! فَلَا يَعْتَرِضُهَا هَذَا الْوَقْتُ إِلَّا جَاهِلٌ بِالزَّمَانِ! وَلَيْتَ لَوْ سَلِمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ! وَإِنَّهُ مَنْ أَمَلَ أَنْ يُسْقَى بَلَدَهُ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ، فَكَيْفَ لِفُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمِيزُ؟»

وَلَمَّا قَامَتْ عَلَيْنَا الْيُسَانَّةُ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا، وَيَعْدُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّثْبُتِ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ، وَيَبْلُغُنِي مِنْ ذَلِكَ مَا يُقْلِقُ، فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ نُوجِّهَ إِلَى مُرْسِيَّةٍ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأَنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يَبْنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ: إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا، وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَثِمَرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ؟

وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْفَلَنَاهُ، اعْتَقَدَهَا الْمُعْتَمِدُ فِي نَفْسِهِ، عَلَى أَنَّهَا لَمْ نَكُنْ نَغْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّلَاعُلَاتِ عَلَيْهِ آخِرَ ذَلِكَ بِأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ، فَيَسْتَقْضِ الْعَمَلَ بِسَبَبِهِ، أَوْ تَوَقَّفَ الْحَالُ إِلَى أَمَدٍ مَا، كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخِلَاتِ وَالْأَعْمَالِ: فَمِنْهَا مَا لَا يَتِمُّ، أَوْ يَتِمَادَى إِلَى حِينٍ.

٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبته من قبل

عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها:

وإن أمير المسلمين، لما أتى سبته، وهو قد أحشد وأعد، قاصداً إلى جهتنا، لا يريد غيرها، أرسلنا إليه رسلاً مقدّمة، بعد عتاب كبير جرى بيننا وبين المعتمد على خبر مرسية، لم يردّ به مفاسدة أكثر مما وصفناه. وحنّ وصول أمير المسلمين إلى سبته، وقدم رسلنا عليه، وهم: ابن سهل القاضي، المتقدم ذكره، المستعمل للعملة الموصوفة، وباديس بن وأروى من تلكاة، يهنّونه على سلامته ويتلقّون بالرحب قدومه ومُسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرسولان المذكوران، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه، قد أعرضَ عليهما من الجميل ولطيف القول ما لا شك في محبته، فسرنا ذلك، وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شاء! لست ممن يكلف أحداً إلا طاقته!» فكان ذلك منه دهاءً وحذقاً، مع ما نُبّه عليه قبل، من قبل ابن سهل بالمُخاطبة وغيره، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتبة الواردة من عنده، وأن المُداوَرة بالقول أولى، حتى يُظهر ما شاء ويمهّد لعمله بذلك.

وإن ابن سهل، لما رأى من خلاف الجند، واطلع عليه من أنفس أهل البلد ما اطلع، قدّم لنفسه، ورأى ألا يُخلّى من عمل يقربه فيمن تقرب، وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مُختلف، ونفث ذلك باديس المذكور، وصحّ عندي وقت انصرافها أن ابن وأروى قال: «أرسلنا للخدمة له في زعمه، ولم نصنع غير أني كُتِفْتُهُ، والقاضي ضرب عُقَّة!» إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة.

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس

مؤلف هذا الكتاب

obeikandi.com

٦- استسلامه للسلطان المرابطي.

سجنه - إخراجُه من الأندلس ونفيه

٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه:

[وعند وصوله قُرْبُبة] اجتمع [أمير المسلمين] بالمُعْتَمِدِ، وسأله عَمَّا لَهَجَ النَّاسُ بِهِ مِنْ مُدَاخِلَةِ الرُّومِي، فشهد بذلك، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه، وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابًا يقول فيه: «اقْبَلْ إلينا، ولا تتأخَّرْ ساعةً واحدةً!».

فرابنى ذلك، وهو موضعُ الانقباض، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الطَّلَبِ، وَأَنَّ بِمَحْضَرِهِ جَمِيعُ أَعْدَائِنَا، وَإِلْحَاحُهُ عَلَيْنَا فِي الْوَصُولِ، وَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ بِتَوَجُّيهِ رُسُلُ: أَحَدُهُمَا وَلَدُ حَجَّاجٍ، وَالْآخَرُ ابْنُ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَسَاعَةً وَصُولَهُمَا، قَرَّعَهُمَا بِكُلِّ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ بِثِقَافِهِمَا فِي الْحَدِيدِ عَلَى الْمَقَامِ، وَقَالَ لَهُمَا: «بِاللَّهِ! إِنِّي غَزَوْتُهُ كَمَا نَغْزُو الْفُونْشَ! وَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلْيَصْنَعْ!» وَأَتَانِي بَعْضُ الْفُرْسَانِ النَّاهِضِينَ مَعَ الرُّسُلِ عَلَى أَسْوَأِ حَالَةٍ، مَضْرُوبِينَ مَلْهُوفِينَ، أَطْلَقَهُمْ قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ، وَيَقُولُ: «بِاللَّهِ! أَنْ أَطْلَقَهُمَا الْأَمِيرُ حَتَّى يَنْطَلِقَ مُؤَمِّلٌ وَأَصْحَابُهُ!» فَدَهَمَنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَا مَرْفَعَ فِيهِ وَلَا حِيلَةَ، وَلَا ظَنَنْتُهُ أَنْ يَجْرَى عَلَى هَذِهِ الرِّقَبَةِ.

وَأَرْسَلَ عَلَى الْمَقَامِ كُتُبًا إِلَى الْيُسَانَةِ - فَأَوَّلَ مَا طَاعَتْ لَهُ - وَإِلَى جَمِيعِ حَصُونِ الْغَرْبِ، عَلَى يَدَي نَعْمَانَ الْمَذْكُورِ، السَّاعِي فِي مُدَاخَلَتِهَا قَدِيمًا، وَكَانَ مِنْ كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهْوَ قًا ﴿ (الإسراء: ٨١) إِنْ لَمْ تُطِئُوا عَوْنَنَا ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ (البقرة: ٢٧٩) وَإِنَّ خُطَابَهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَى مَعْقِلٍ مِنْهَا إِلَّا وَالْقَى بِيَدِهِ، وَقَامَ أَهْلُهُ عَلَى إِخْرَاجِ قَائِدِهِمْ، حَتَّى تَنَاقَرَتِ الْمَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانْتِثَارِ الْعَقْدِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ الْأَمِيرُ إِلَى بَلَيْلُشْ، وَمِنْ أَمْتَنَعَ مِنْهَا، قَاتَلَتْهُ الرِّعْيَةُ مَعَهُمْ، حَتَّى يَلْقَى بِيَدِهِ.

فَلَمْ نَذِرْ مَا نَصْنَعُ «وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ» وَقُلْتُ: «لَا طَاقَةَ لِي بِجَمِيعِ أَهْلِ الْبِلَادِ، إِذْ غَدَرُوا وَخَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ! فَبِمَنْ نُمَسِّكُ الْحَضْرَةَ؟ لَيْسَ فِيهَا خَلْقٌ مِنْ غَيْرِ جِنْسٍ مِّمَّنْ كَانَ فِي الْمَعَاقِلِ «وَلَا يَتِمَكَّنُ لِلْخَبَاءِ أَنْ يَقِفَ دُونَ أَوْتَادِ!» وَلَا فِي الْأَمْرِ مِنْ مُدَارَاةٍ وَلَا حِيلَةٍ مَعَ الرَّجُلِ أَكْثَرَ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي خَلْعِنَا! وَلَا ثَمَّ غَيْرُهُ يُسَدُّ إِلَيْهِ، فَتُسْتَرِيحُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعُظْمَى وَالطَّامَةِ الْكُبْرَى! وَلَا فِي الْمُمَكِّنِ أَنْ نَوَجَّهَ إِلَى الرُّومِيِّ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فُسَادًا فِي الدِّينِ، وَاسْتَعْجَالًا لِلْمَكْرُوهِ؟ وَإِنْ شَعَرَ بِذَلِكَ أَهْلُ حَضْرَتِنَا، كَانُوا أَوَّلَ مَنْ يِقَاتِلُنَا قَبْلَ الْمُرَابِطِينَ! مَا دَامَ السِّرُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَيَكْشِفُونَ لَنَا الْقِنَاعَ عَلَى بَصِيرَةٍ!» فَمَا عَهْدُنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ.

٧١- وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة:

وَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَسْكَرًا إِلَى غَرْنَاطَةِ، مَا دَامَ مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ، يَحْرُسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِي، إِلَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ، وَأَرْسَلَ الْقَوَادُّ إِلَيْنَا أَنْ نُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ وَالْعَلْفَ بِالْمَدِينَةِ، فَاجْتَنَاهُمْ، لَثَلَا يَقَعَ مِنَّا شَيْءٌ مِنَ الْخِلَافِ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ.

وَأَرْسَلْتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِمَالٍ، وَيُعْلِمُونَهُ أَنَّ ابْنَهُ،

وغيرُ مُخَالِفٍ عليه، والطاعةُ مِنَّا له على مرغوبه، دون أن يحوج إلى هذا التعب كله، فأرسل إلينا الفقيه ابن سَعْدُون، يقولُ لنا: «لا طاعة ولا صلحَ إلا بالخروج إليه! وهذا أمانه: كِتَابٌ بخطِّ يَدِهِ، يتضمَّنُ الأمانَ في النفس والأهل دون المال» فأيقنْتُ بالغرَض، وكان في آخر كتابه لنا: «إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا، فتخيرَ من بلادك مَوْضِعًا تصيرُ فيه، ولتكنْ غيرَ غَرْنَاطَةِ، لنرى فيها رأيًا! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ لا تَتِمُّ!».

فرويتُ هذا الأمر، وعلمتُ أنَّي بحال ومكان لا اختيارَ لي فيه، وأنَّ المذهبَ فيَّ إلاَّ إلى مَعْقَلًا، وأنه لا مَهْرَبَ من بين يديه، فقلتُ: «من السَّخْفِ يكون أن أقول: «قد اخترتُ مَوْضِعَ كَذَا!» فإن كان لها كَارِهًا، لم البَث أن أُرَدَّ منه بتعلُّلٍ وحُجَّةٍ للقوى على الضعيف! وإن كان في نفسه العِوَضُ، فَبِخُرُوجِي إليه يُرَبِّي ما يَعْتَقِدُهُ من إحسان، ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه، فإن كان قد أجمل وقبل، فَلَهُ الفضلُ، وعلى الشكرُ آخرَ الدَّهرِ، وإن كان قد غدر، كُنَّا واثقين بالقَدَرِ، وأبلىنا عند الله وعند الناس العِذْرًا!».

٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة:

ولما التَفَقْنَا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرَكاتهم، اطلَعْنَا على أمورٍ دليَّةٍ على الانتقال، مؤذنة بالزوال، وقَسَمْنَاهم أصنافًا على القياس والرتبة، مع المُعَايَنَةِ لما عَمِيَ قَبْلُ، وإظهار ما خَفِيَ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صَوْلَةَ تتَقَى، أمَّا الجُنْدُ من البربر، فكانوا مُغْتَبِطِينَ بهم، طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية، واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحَجَرٍ، وقدَّموا كُتُبَهُم بالطاعة، وراجعَهُم عليها، يَعِدُّهم بأن يُبْقِيَهُم في أَمَاكِنِهِم على أفضل ما كانوا عليه، فمن كان منهم بالمدينة الفوقى، تَقَلَّعَ إلى السُّفْلَى بأهله وماله، وبقي هو

بِنَسْمَتِهِ مُتَفَرِّدًا مُتَاهِبًا لِلشَّرِّ، إِمَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ، أَوْ بِإِسْلَامِنَا إِلَيْهِ وَالتَّبَرُّؤِ مِنَّا.

وَمَنْ كَانَ مِنَ التَّجَارِ وَأَهْلِ الْبَلَدِ، فَكَانُوا عَلَى نِيَّةٍ أَنَّهُمْ مَعَ مَنْ سَبَقَ، وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ، وَلَا هُمْ أَهْلُهُ، وَأَكْثَرُهُمْ خَرَجَ مِنَ الْبَلَدَةِ يَقُولُ: «لَا يُؤَيِّدُ وَجْهَهُ تَحْتَمِلُ الْحِصَارَ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا!» وَأَمَّا الرِّعْيَةُ، فَبَخِ بَخِ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَبْغِي، طَمَعًا مِنْهَا فِي الْحُرِّيَّةِ، وَأَنَّهَا لَا يُلْزِمُهَا غَيْرُ الزَّكَاةِ وَالْعَشْرِ.

وَأَمَّا الرِّقَاصَةُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ، الَّذِينَ كَانُوا عِمَادَ الْحَضَرَةِ، وَبِهِمْ كُنَّا نُمْسِكُ الْحِصُونَ، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ، وَأَعِينَ مَنْ بِالْحَضَرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: «مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا؟» فَلَمْ نَجِدْ فِي صِنْفٍ مِنْهَا رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا!.

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَالصَّقَالِبَةُ، فَالْعَبِيدُ الْأَعْلَاجُ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا، كَمَا ذَكَرْنَا، بَلَوُشَةُ، رَجَوُا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي عَاقِبَةٍ أَنْ يَخْطِئُوا عِنْدَهُ، فَيَقُولُ: «مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ! فَكَيْفَ غَيْرُهُ؟» إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، لِلَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ - لَا رَادَ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ!.

حَتَّى الْخُدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخَصِيَّانِ: كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، وَالْخُرُوجِ عَنْ ثِقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةِ التَّسْرِيحِ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَجَعَلُوا الْخَصِيَّ مِنْهُمْ وَلَبِيبٌ كَانَا زَعِيمِي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسَ الْفَتَكِ، يَقُولَانِ: «نَحْنُ لَا وَكَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدًا! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى الْقِتَالِ؟ وَمَا عَسَى نَنْظِمَ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ: هَلْ يَجْمَلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً أَوْ قَضَاءً أَوْ فِقْهًا؟»

إنما نحن بمنزلة العيال: من سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بنا، وكُنَّا عنده من جملة الفئىء، نَرْزُقُ كسائر الكسْب، فلا نضِيعُ! تعالوا بنا! نُقَدِّمُ لأنفُسنا!» فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويَّة، والمثاقيل، والمَرَاتِبُ العالية، يَعِدُّهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم لنا، حتى اتفقت من كلِّ جهة.

٧٣- لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم:

ولما اتَّسَقَ له ما أَمَلَ، وَعَلِمَ بما معه فى البلدة، بعد تَقْدِمة عَسْكَرِهِ، كما ذَكَرنا، إلى فَحْصِ غَرْنَاطَة، وكان أَهْلُ البلدِ يَتَقَلَّعون من المدينة إلى البادية، ويخرجون منها أفواجاً، رأينا إمارة الشرِّ وعلامة السوءِ، فإذا بأمير المسلمين فى أثر ذلك العسكر مُقْبِلاً إلى الحضرة، فهاج الناسُ وجزعوا، واتَّفَقَ رأيى، مع مَنْ نصَحنى، أَنَّ الخروجَ إليه أَوْلَى، والتزامى عليه أنجاً من هذه النار الموقدة، فلعلَّه، إذا رأى براءتنا مما نقله العدو، ولم يَجِدْ فى المدينة نصارى كما قيل، فلا بُدَّ له من وَجْهَيْنِ: إمَّا صَرَفْنَا إلى أوطاننا، وإمَّا إخراجنا، فَلَنْ نعدم جميلاً، إذ لم نُهْجْ عليه حرباً، ولا اتَّعَبْنَاهُ فى أمرٍ.

وَكَمْ عَسَا العَيْشُ فى هذه الدنيا والنجاة بالنفس فى دار الدنيا وتخليصها من الأوزار فى الآخرة، لا يُبَالِغُ ذلك شَيْءٌ ولا يعدله! فاستَعْمَلْنَا العَقْلَ الذى جعله الله أميراً على كلِّ شَيْءٍ، وكلُّ قُوَّةٍ لا يتَأَنَّىها العَقْلُ ضَعْفٌ وسُكْرٌ، مع سوءِ العاقبة، ولا سِيَّما أَننا بحال لا بُدَّ من إسْخاطِ الرُّومِ بإرضاء المسلمين، أو إسْخاطِ المسلمين بإرضاء الرُّومِ! فالآن يَرِثُها المسلمون أَوْلَى وأَجْمَلُ للعاقبة، إذ هى نُشْبَةٌ لا مَلْجَأَ منها إلَّا بما ذكرنا.

اللَّهُمَّ إنه لو امْتَسَكْنَا فيها بنفقة الأموال، ولا يمكن استِبدادٌ دون انتظار قُوَّةٍ من النصارى، ثُمَّ أتى الرومى، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو

إلى قُرطبة، مرتقبًا لما يكون منه، فيقول لى الرومى: «قد أَقْلَعْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَافَأَةِ!» فلو قلتُ له: «أَتَرُكُ عَسْكَرًا مَعِي، وَابْقَ أَنْتَ لثَلَاثَ يُعَاوِدِنَا!» ما كَانَ يَفْعَلُ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارَ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْعَسْكَرِ الْخَارِجِ، وَلَوْ أَنْصَرَفَ دُونَ أَنْ يَتْرِكَ قُوَّةً، فَسَاعَةَ أَنْصَرَفَهُ وَإِقْبَالَ الْمُرَابِطِينَ، لَمْ تَرْتَفِدْ لَهُمْ سَاعَةً، وَيَنْقُطِعَ الرِّجَاءُ عَنْ مَعُونَةِ أُخْرَى: فَهَنَّاكَ النِّكَالَ الْكَبِيرَ، وَصَحَّ لَهُمْ قَتْلُنَا بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ.

ولو أَنَّ عِنْدَ إِقْبَالِ الرُّومِيِّ، يَقُولُ لَنَا: «إِنْ كُنْتَ تَتَّقَى مِنَ الْمُرَابِطِينَ، وَلَا يُمْكِنُنَا السَّكْنَى مَعَكَ مِنْ أَجْلِهِمْ، فَتَخَلْ لَنَا عَنْهَا، وَتَصِيرْ إِلَى كُلِّ مَا تَحِبُّهُ مَعَ النِّجَاةِ بِنَفْسِكَ وَحَشَمِكَ وَذَخَائِرِكَ، كَالَّذِي صَنَعْتَ بِحَفِيدِ ابْنِ ذِي النُّونِ، إِذْ عَاوَضْتُهُ بِلَنْسِيَّةٍ، وَإِلَّا، فَلَا اسْتِيطَانُ لَكَ عِنْدَنَا، إِذْ لَا تَفِيدُنَا بِالْبَلَدَةِ، وَمَا يَغْنَى خُرُوجُكَ إِلَيْنَا وَتَرْكُكَ لِمَدِينَتِكَ مَطِيبَةً لِلْمُرَابِطِينَ، فَيَدْخُلُ عَلَيْنَا الْحَزْمُ مِنْهَا» فَلَوْ أَطْعَمْنَا، لَارْتَكَبْنَا مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الدِّينِ مَا بَلَّغَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ وَالنَّاسَ أَجْمَعُونَ، وَكُنَّا نَتْرِكُ غَرْنَاطَةَ حَبْسًا لِلرُّومِ، يُضْرَبُونَ مِنْهَا الْمُسْلِمِينَ، فَلَا دِمَاءَ تَسْفِكُ مِنْهَا، وَلَا دَاخِلَةً تُدْخَلُ إِلَّا وَكَانَتْ فِي صَحَائِفِنَا، وَلَا خَيْرٌ فِي أَثَرَةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ!.

ولو أَنَّ يَتَرَبَّصُ الْمُرَابِطُ عِنْدَ إِقْبَالِ الرُّومِيِّ، وَلَا يَنْحَاشُ لَهُ، كَمَا وَصَفْنَا، وَيَبْنِي عَلَى لِقَائِهِ، فَلَوْ التَّقَّتِ الْفَتَنَانِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِلطَّائِفَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى الْأُخْرَى، فَلَوْ أَنَّهَا عَلَى الرُّومِيِّ، فَفَى إِثْرَ ذَلِكَ، لَمْ يَقْدَمْ عَلَى قَتْلِنَا شَيْئًا بِالْحُجَّةِ أَنَّا أَجْلَبُنَاهُ، وَلَوْ أَنَّ الرُّومِيَّ يَغْلِبُ، فَنَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَلِكِ مَا شَاءَ اللَّهُ، لَمْ يَطِبْ لَنَا مُلْكُ، وَلَا سَتَحِينَا مِنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِبَوَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلَكَاهُمْ! ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَصِحُّ لَنَا ثُبُوتٌ مَعَهُ، وَأَيُّ شَيْءٍ كَانَ

يحجره عَنَّا، ولا شيء نرتجى به نزع أنفسنا منه، ولا بمن نتصبر لو همَّ بأخذ الكل.

كَيْفَمَا رَوَيْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ! فَخَرَجْنَا إِلَى الرَّجُلِ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ، لَا نَدْرِي مَا نَلْقَى، إِلَّا كَالْخَاطِرِ بِنَفْسِهِ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ.

٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله:

وَلَمَّا لَقِينَاهُ، سَرُّ بِذَلِكَ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا، وَلَنَا مِنْهُ الْمُرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ، ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالترْقِيبِ عَلَيْنَا، إِلَى أَنْ يُثَبَّتَ خَبْرُنَا، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا.

فَانْتَدَبَ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلُ دَوْلَتِنَا، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودِعَ عِنْدَهُ شَيْئًا، فَلَمْ نَفْعَلْ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «هَؤُلَاءِ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ! وَلَيْسَ تُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ: إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي، وَلَا نَقِيتُ بِهَا عَنْ وَجْهِهِ، وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِبَعْضِهِ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَنَّى بِهِ مَا يَبْقَى لَهُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَفْتَضِحُ عِنْدَهُ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرَقًا وَلَا عَدْلًا، وَرَبِّمَا يَحْتَقِ عَلَيَّ، فَيُؤْذِنِي بَعْدَ الْأَمَانِ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي الْمَالِ، وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ نَرْجُو بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ، وَلَوْ أَمَكَّنَنِي أَنْ أُرِيدَ فِيهَا، فَتَمَلَأْتُ أَعْيُنُهُمْ! وَأَنَا لَا أَبْتَغِي إِلَّا الْعِيشَ لْخَاصَّةِ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنِّي بِقِلَّةِ الْعِيَالِ، وَلَا خَيْرَ فِي الْغَرَرِ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ بَقِيَ مَعِي، مَعَ اخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ إِنَّمَا

يحتاج للمملكة والأجناد، فالآن قد أراح الله ذلك عني، ولم يبقَ إلا طلبُ السلامة بحُشاشة النفس، وهى غنيمةٌ فى مثل هذا الوقت الحاداً!

فخرجتُ إلى الرجل بعد ثفاف القصر، ولا خوفَ عليه ذلك الوقت، إذ كان الناسُ بينَ يأسٍ وطمعٍ فى الرجوع، فلا جرأةَ من أحدٍ فى اعتراضِ شىءٍ من ساقِتنا، ولما أنزلتُ بتولّى قُرورَ للأمر، جعل الحرصَ على الخِباءِ، وأمر بطرد الداخل والخارج، وحيلَ بيننا وبين عبيدنا وصنائعنا: كلُّ يفتش عليه ويبحث على ما لديه من مال كسبه فى ولايتنا.

ثمَّ أنا الفقيه ابنُ سعدون من عند أمير المسلمين، يقول: «أحضر الأموال والأزمنة بها! فإن مؤملاً قد أخبره أنه ليس عندهم درهم إلا بزمامٍ وذكر» فقلتُ له: «نعم! كان ذلك، قد تركته فى دارى، فإن أباح لى المسير بنفسى لاستخراج الكلِّ، وإلا، فهذه أُمى، تتولّى ذلك مع ثقاته حتى لا يغادرَكم منه خيط!».

وكان، عند خروجى، قد وقع فى نفسى من خوف الثفاف ما خشيتُ الفرقةَ منها إن تركتها فى القصر، فخرجتُ معها، ولم ألتفت إلى ما سواها، وأنا مع ذلك فى حيرة لا أدرى لما يصير أمرى، قد أشرب قلبى من الخوف والجزع ما لم أعهدهُ قطُّ، ولا كان فيه عزاء، فإن الأمور التى ينبغى لها الاستبابتُ والصبرُ ما كان من أمرٍ دون أمر، وإن جلَّ خطبٌ، يُرجى فى غيره الراحة، وبعض الشرِّ أهونُ من بعض، وإنما هذه النصبَةُ لم يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أملٍ ورجاءٍ لیسر، إلا بحيث يُحتسب، فأذهلنى ذلك عن كلِّ ما لى فيه صلاحٌ من تقدمة النظر فى مال أو غيره، بل، كانت نفسى أكَّدَ

على، لم تعمل حساب مَنْ يعيش، لا سِيَّما من لم تَجِرْ عليه قبل ذلك محنة، ولا أكره الدهر برزئة، فجاءت جُمْلَةً، أبْهَتَتْ وخانت القياس، وحادثت عن سبيل المعهود.

وقد كان أرسل إلى قُرُور يطلُب خطَّ يدي بإسلام المدينة وإخراج من لى فيها من الحشَم، فبادرتُ على المقام، إذ الالتواءُ عن ذلك ممَّا لا ينفع، ولو فعلتُ، لكان ذلك زيادة في الهوان، ولم يَقْدِ شيئا، وأنا قد حَصَلْتُ في القبضة.

وكنْتُ أخرجتُ مع نفسي أسبابا منها سَقَطُ ذَهَبٍ فيه عشرة عُقُود من أنفُس الجَوْهَر، وذَهَبًا مَبْلَغُهُ سِتَّةُ عَشَرَ ألف دينار مُرَابِطِيَّة، وخَوَاتِمَ، وتأوَلَّتُ في إخراجها معى أن قُلْتُ: «إن كان الأمر يسدو من الأمير بثقاف، فهذه حاصِلَةٌ لا تنفع، تُجْعَلُ كَسَوَاهَا، وإن لم يكن، وربما تأخَّرَ في الأمر بعد قضاء غزوته، داريتُ منها وأعددتُها لِمَا ينوب على العَسْكَر ومُتَاحِفَةِ المُرَابِطِينَ».

ولم يَتْرِكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَا وَبَيْنَهَا، وَفُتِّشَ عَلَيْهِمُ إِلَّا تَكُنْ فِي أَوْسَاطِهِمْ خَبِيئَةٌ، وجعل قُرُور يقول لى ولأُمِّي: «اكشفا لى عن ثيابكما، فقد أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الجَوْهَر على أَوْسَاطِكُمَا» فَتَبَرَّأْنَا لَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ، ثُمَّ جَعَلَ يَنْفُضُ الْمَخْدَاتِ عَنِ الصُّوفِ، وَيَفْتِشُ بَيْنَهَا، وَيُقَلِّبُ التَّوَابِيْتَ عَلَى وَجُوهِهَا، وَيَحُلُّ طَى الثِّيَابِ فَتَشًا لَمْ يُعْهَدِ مِثْلُهُ قَطُّ، ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْخِباءُ، خَوْفًا مِنْ أَنْ نَدْفِنَ فِيهِ شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لى: «إِنْ سَلِمْتَ بِرُوحِكَ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ».

وصار الكلُّ فيئاً من خادمٍ وغلّامٍ، ما خلّاني وأمّي، وكنت وقت خروجي قد أخرجتُ مع أمّي صبيّةً طمعتُ أن أنجو بها، فلا يُوبه لها، ألاّ أنفرد دون أحد من أهلي، لتكونَ لي عُدّةً لما بعد ذلك، فاتى قرور، وألقى يده فيها، وأخرجها، وفشّ ثيابها على المقام، وتحملها، ثمّ أتى إلى اثاث الخباء كلّهُ وفشّهُ ظاهراً وباطناً، فكلُّ ثوب أو حاجةٍ استحسنها، أخذها لنفسه، وكاد أن يُعرّيني من الكلِّ، وأصاب الدنانير المذكورة، فقال لي: «ما أردتُ بإخراجها؟» قلتُ: «لأُناحفَ بها الأمير!» فهدّني وأدخلني تحت وعيد، ثم أمر بانتقالها عن المقام، وأخذ السقّط بما فيه من الجواهر والخواتم: هو من جهةٍ، ورِييهُ من أخرى، وأنا في هذا كلّهُ لا أرجو شيئاً إلاّ السلامة في الروح، ولم نَشْكُ إلا أنه لا يكون بعد هذا إلا القتل.

ثمّ إنه أمر والدتي بالطلوع إلى القصر لاستخراج الأموال، فتكدّرتُ لذلك أياماً، ما منها يومٌ إلاّ ونظنُّ أنها لا ترجع إليّ، حتى دَفَعَتْ إليهم الكلَّ بالآزمة، لم يُغادرهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ، حتى أن الحاجة اليسيرة ربّما كانت عندي في الخباء، فيُشدّدُ فيها على الوالدة، فتأتى عنها وتحملها إليهم. ولم يتبَيَّنْ لي خِلافُ أهل بلّدي، إلاّ والأمرُ قد فات، من النظر في الزمام أو غيره، ولم يتقدّمني أحدٌ إلى مثل هذا، فنأخذُ حِذْرِي ونتأهبُ له، ولم يكن إلا ما شاء الله، إذا أعطى، فلا مانع، كما أنه لا يتهيبُ، مع ما سَلِبَ وضاع، ثبوتٌ ولا بقاء، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء.

فلما تَقَصَّوْا الجميع، وتبين الحقُّ، جاءني قرور بوصية السلطان، مع أبي بكر بن مُسكّن، وهو في ذلك على مُتَقِمِّ شائئ، وهو يقول لي: «الأميرُ

يُنْهَى إِلَيْكَ أَنْ لَا يَبْقَى لَكَ عِنْدَ أَحَدٍ وَدِيعَةٌ، وَإِنْ مَا فِي قَصْرِكَ قَدْ تَنَزَّلَتْ عَنْهُ بِالْأَزْمَةِ، وَمَا فِي خِبَائِكَ قَدْ صَارَ إِلَيْنَا وَفَتْشَانُهُ، وَبَقِيَ لَنَا أَنْ نَدْرِيَ مَا لَكَ مَوْدُوعًا، وَإِذَا، لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، إِنْ خُرَجَ قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ، وَلَا تَكُونَ عَقَبَاكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرِيحُ ذَلِكَ الْمَالُ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعْتَهُ فَرَجَعَتْ إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعَةً، فَلَمْ أَجِدْ، وَأَقْسَمْتُ لَهُ عَلَى حَقِّ.

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ، أَعْظَمُهَا، وَأَقُولُ لَهَا: «أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ! أَلَا مَا أَشْفَقْتُ عَلَى؟ فَرُبَّمَا قَدْ أَخْرَجْتَنِّي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ، فَيُظْهِرُ بَعْدِي، وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي، وَهَلَاقُكَ وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ! وَالْقَوْمُ، كَمَا تَرَيْنَ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَ سَبَبٍ! فَيَاكَ أَنْ تَشْمَتِي بِي! وَإِذَا تَبَرَأْنَا لَهُ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا، وَلَيْسَ يُدْخِرُ الْمَالُ إِلَّا لثَلَاثَ: سُلْطَانٍ يَجُورُ، أَوْ فِتْنَةٍ تَدُومُ، أَوْ عُمُرٍ يَطُولُ، وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ!».

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ، بَكَتْ وَقَالَتْ: «نَخْشَى أَنْ يَبْقَى فَقَرَاءُ! وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْفَقْرِ!» فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ، وَقَالَتْ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ مَنْ خَلَقَ!» فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعْتُ مِنْ مَتَاعِهَا، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا: ذَكَرْتُ أَنَّ لَهَا عِنْدَ لَدَّةٍ خَادِمٍ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ كَاتِبِنَا سُيَّيَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرَوِيِّ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِثْقَالٍ، وَحَلِيًّا أُرْسَلَتْ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ: نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا، فَأَمَّا الْحَلِي، فَأَتَانَهَا وَأَعْطَاهُ لِقُرُورٍ، وَلَمْ تُوَخَّرْ بِهِ سَاعَةً، وَأَمَّا الذَّهَبُ، فَإِنَّهَا، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ، بَادَرَتْ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحْمَلَهُ لِنَفْسِهِ وَكَذَلِكَ فَعَلَتْ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ، وَأَتَتْ إِلَى قَرُورٍ

بتلك الأسباب، فوقع إلينا الخبرُ، وزادنا ذلك همًّا أن بدروا به للشرط الذى اشترط علينا، فأخذتُ على المقام تلك التَّسمِيَةَ، وأرسلتها إلى قُرُور، قبل أن يبدأ بنا، فقال: «قد أخرجوه لنا، فإياكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم!» فاستفهمتُ والدتي ثانية، وبكيتُ لها، فقالت: «ما لى شيء عند أحد أكثر!» فأخذنا المصاحفَ، وحلفنا فيها لقُرُور أنه ما لنا شيء أكثر، لا مُودَعٌ ولا مرفُوعٌ فأعلم السلطانَ بما أقسمنا به، وجعل مع هذا يبحث ويستقصي، فما وجد لنا أكثر كما قالت الوالدة.

ولمَّا لم يجد شيئًا، أتانا قُرُور ثانية، وقال: «إنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكثر، ولكن إياك أن يكون لكم مالٌ مدفون!» فقلتُ: «ما علمتا قطُّ بدفنٍ، ولا حسبنا هذا الحساب، ولا كان الدفنُ شأننا! وغيرُ مُتَعَدِّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كله، حتَّى يرى!» فقال لى: «إياك بالمنكب!» فقلت: «ما لى بالمنكب إلا شيء من الأثاث عَدَدَتُهُ لتزولى فيها: جميع ذلك بزمام بخطِّ يدي، يُرْسَل فيه الأمير ويأخذُ به!» فقال لى: «هات خطَّ يدك بإخلاء المنكب!» فبادرتُ على المقام، وأصاب الزِّمام بالمنكب على الصِّفَّة التى وصفتُ وكان الجُنْدُ بها قد تَرَبَّصُوا، وقامت الرعيَّة، فطلب خطَّ يدي بالإخلاء.

ولمَّا صحَّ عنده براءتنا من جميع الأشياء أتانا قُرُور لتحصيل ما بقى، والعَجَبُ منه فى تلك المدة أنه أتانى بسفر كبير، وقال لى: «اقرأها! فإن فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بِمُلْكِ الأندلس، وفيه عباراتها!» ولا أدرى ما أقرأ [ولا أسمع] أكثر من قوله لى بهذا اللفظ: «ليس كذا هو؟ فجئيت

الأموال، لا [بقي لك] منها شيء!« ولما وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثياب، رفع بذلك كتاباً إلى الأمير، وأعاد الفتش، يجد غير ما رآه أولاً.

٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما فى التسمية أنه لا غنى للإنسان عنه، سوغه لنا مع ثلاثمائة دينار وثلاث خدام، أمر لنا بها، وأعارنا دواب خمسة لنقلان الأثاث كله، وأمرنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء، وقال: «تنتظروا بها السلطان حتى يرد عليكم» وأعطانا من المرابطين مشيعين من يؤنسنا ويتكفل أمورنا، فشكرنا له ذلك، وتحركنا على المقام، إذ كان الحفر منه فى ذلك شديداً.

وكنا طول طريقنا جازعين، لا ندرى ما يذهب إليه بنا، ولا ما الإشارة فينا، وقد كنت أرى المرابطين ينزلون بمنزل، أو يحتلون فى موضع، فأقول: «إن ذلك لشيء أمرؤا به!» فكنت طريقى ذلك تحت جزع وهلع، أسأل الله أن يكفر بها السيئات، ويجعلها آخر مصايينا بعزته، إلى أن وصلنا الجزيرة.

فأرسلنا إلى سبته، ودخلنا البحر فى يوم عاصف، أدركتنا فيه أهوال لم نكد نسلم منها إلا بالأجل الذى لم يحضر، حتى خرجنا إلى سبته، بعد أن قيل لنا: «فيها تنتظروا الأمير!» كما قيل عن الجزيرة، فزادنا ذلك قلقاً.

ثم نقلنا إلى مكناسة الزيتون^(١)، وتلقانا الأمير سير، وأنسنا، وأخبرنا أن مقامنا عنده إلى أن يرد السلطان من الأندلس، وأرسل إلينا مائة دينار، وعند

(١) مكناسة الزيتون: مدينة فى المغرب من نظر فارس إلى جهة المغرب، وهى أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، الممدن منها يسمى تاجرارات، وتفسيره المحلة، وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة، وهى مدينة جليلة فيها الأسواق الحفيلة (الروض المعطار).

حُلُولِنَا بِهَا، أَيْقَنَّا بِالْمُقَامِ فِيهَا، وَبَقِينَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، قَدْ قُفِدَ مَا كَانَ بَأَيْدِينَا، وَأُحْوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي تُرِكَتْ بِنَا بَعْدَ أَنْ اسْتَحْوَذَ قُرُورٌ وَحَاشِيَتُهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا أَنْهَبَتْ!) لَمْ يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَظَرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أَبْقَى، وَالسُّلْطَانُ - أَيْدُهُ اللَّهُ! - غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنِ الشُّكُوى إِلَيْهِ، إِذْ كَانَ قُرُورٌ وَاسِطَةً، وَمَا كُنْتَ أَتَشَقَّى مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنَّهُ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ [كُتِبَ إِلَيَّ] يَقُولُ لِي: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ!» [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ مِنْ إصْبَعِي وَيُعْتَهُ بِعَشْرَةِ دَنَانِيرٍ، فَرَاغَعْتُهُ نَعْلِمُهُ بِحَاجَتِي إِلَى ثَمَنِهِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَخْذَهُ لثَلَا يُبْقَى لَنَا شَيْئًا، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِي غَيْرُهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى، وَأَنَا بِمَكْنَسَةٍ، وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَعِدُنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ، وَيَقُولُ لِي: «لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَْتَ!» فَسَرَّنِي ذَلِكَ - أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ! - فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللَّهِ! مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ، إِذَا وَرَدَ مَرُوكُشٌ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ مَا كَانَ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِثَارًا، فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةٍ، إِلَّا أَنَّ الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ، وَقُرُورٌ، مَعَ هَذَا، لَا يَدْعُ طَلْبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَى بُغْضِي، مَعَ قَلَّةِ رَحْمَتِهِ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ، وَدَنَاتِهِ وَلَوْمِهِ.

٧٦- عَزَلَ الْأَمِيرُ تَمِيمٌ صَاحِبَ مَالِقَةَ وَأَخَى عَبْدِ اللَّهِ نَفِيهِ:

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا تَمِيمٍ بَعْدَنَا، وَأَنَّهُ، لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةٍ كُونَنَا بِغَرْنَاطَةِ لِإِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ، وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مُرَقَّبِينَ فِي

الخباء، كان تميم المذكور يزورنا، ويتكدر علينا للذى يلزم من حُبِّ القرابة وصلة الرَّحِم، وكان قَرُورٌ، فى هذا كُلِّه، يرمقه ببصره، ويعتقد فى نفسه لذلك شَرًّا، وصوّر عند السلطان أن مالا أخرجناه من المالِ مودُوعٌ عنده، ليسلم لنا بسلامتِه، مع ما زيدَ فيه من الطَّلَب، أن قيلَ للسلطان: «ثَقُفْتَ صاحبَ غرناطة، وأخوه منه! وإن تركته ينصرف إلى بلده، طلبك بالثار، وأفسدَ عليك ما ترجو صلاحه، مع شرِّته وحدته! فهو بذلك مَرْسُومٌ معروف! فعاجل بثقافه، يصفى لك ما تؤمِّل!».

وكان قبل ذلك، على ما أعلمنى أخى المذكور، قد أنسَه السلطان، ووَعَدَهُ بصَرْفِ بلاده إليه التى صارت إلىَّ، وقال له: «لَسْتَ من أخيك [بالمسئول، وأنتَ أظهرتُ لى] الطاعة، وأجملتَ المُعاشرة، وإنك أولُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [المُرابِطِيَّة] والآن تستحمد عاقبة رأيك، ونجعل لك بتلك المَزيَّة على أقرانك!» فطمع الصبىُّ بذلك، وشره إليه: كلُّ ذلك خِذلانٌ [اغترَّ به] ملوك الأندلس، وأسعد من أجله المُرابِطون، فعَمِيَتِ البصائر، وقويت الشهوات، وامتدَّتْ الآمالُ بحيثُ يَنبَغى لها أن تقصر.

فلما همَّ به، أخذَ فُجأةً لثلا يشعر، فيغيب المال الذى اتَّهَمَ به، ويفرّ، ونال من قَرُور هوانًا كثيرًا، ولم يترك له سَقَطًا، وييعت أسبابه فى موضع محلَّته، قيمَ لها ثمَّ سوقٌ، وألقى فى الحديد، وأمرَ به إلى السُّوس^(١)، ولما كان طَريقُه على مكناسة، لَقِينَاهُ، فأخبرَ بهول ما قاسى، وبصُرنا به، وهو على تلك الحال قد شقى بالكُبلِ لعِظَمِه، لا يقدر أن يتحرَّك به، فأوجب

(١) فى أقصى بلاد المغرب، وهى مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خير وفضل، وأهلها أخلاط، وهذا السوس الغربى قرى وعمارات كثيرة متصلة بعضها ببعض (الروض المعطار).

ذلك ما وُسِمَ به من الشرِّ، وأنَّ أهلَ مَالِقَةَ رفعوا إليه حيثُذ أفعالاً قبيحةً،
وأبأذى سيئةً أسداها إليهم، على ما ذُكِرَ، فَاتَّفَقَتِ الأسبابُ، فلم يُرد الأميرُ
أخذه إلا بيئته، إلى أن وصل السُّوسَ، ووصَّى به أميرُ المسلمين إلى بَزْلَفَ،
وبالغَ في إكرامه، وكان معه في عافيةٍ ورغدٍ من العيش، وفوض أمره إلى
وَلَاةِ السُّوسِ بعد بَزْلَفَ.

الفصل العاوي عشر

عزل بقية ملوك الطوائف
ومصيرهم بعد ذلك

obeikandi.com

٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة:

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بِالْعِدْوَةِ، بعد أن اكتمَلَ ما شاءَ من أمرِ بنى عَبَّادٍ وصاحبِ الْمَرْيَةِ:

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ مِنْهَا مَا بَلَّغْنَا مِنْهَا، مِمَّا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ، لَا بِتَخْلِيْطِ النَّاسِ، وَنَخْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يَغْنَى عَنْهُ الْإِكْثَارُ: فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نُشَاهِدْهَا، فَتُخْبِرَ عَنْ يَقِيْنٍ وَإِطْنَابٍ، وَلَا غَابَتْ عَنَّْا كُلُّ الْغِيَابِ، فَتُجْهَلَ مَصْدَرُهَا وَمَوَارِدُهَا، أَنَّ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ التَّفَاتِ مَا حَدَثَ بَعْدُنَا لِقَلَّةِ الْمِبَالَةِ بِمَا لَا يَغْنِيَانَا مِنْهَا، وَلِشْغَلِ خَوَاطِرُنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ، عَلَى أَنَّ ذَكَرَ مَا سَمِعَ، وَنَحْنُ قَدْ أَمْنَا مِنَ الْمَوْتِ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَايَنَاهُ، وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ، فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيَّتِهِ بِالْمَعَايِنَةِ، وَعَنْ وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ، فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ.

وَقَدْ كَانَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ، قَبْلَ مَجِيئِهِ إِلَى غَرْنَاطَةِ، قَدْ وَعَدَ الْمُعْتَمِدَ بِهَا، وَقَالَ لَهُ: «أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ، وَلَيْسَ قَدَمْنِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا بِلَادٍ! وَقَدْ تَرَى، مَا رُفِعَ عَلَى صَاحِبِ غَرْنَاطَةِ، وَنَتَوَقَّعُ عَلَيْهَا مِنَ الرُّومِيِّ، وَلَيْسَ غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا، فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِسْكَاطُهَا لِبَيْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ: فَتَكُونُ أَعْلَمُ بِمَا تَصْنَعُ بِهَا، وَأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ الْمُسْلِمِينَ».

فَلَمْ يَشْكُ الْمُعْتَمِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنٌ، وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ فِي نَفْسِهِ: «إِنْ لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ أَخْذُهَا بِقَعُودِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ، فَلَيْسَتْ مِمَّا

تؤخذ من وفقة واحدة! ستنجر الحال من أجلها، وتشيع عليها المحلات، كما صنع بليسط، وتدخل الشتوة، فيحتاج إلى الانصراف، وتبقى هذه المعاقلة التي طاعت للأمير أكون زعيمها، وفي خلال ما يتلوّى أمر غرناطة، احتيج إلى، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين، ولا نخلى من بركتها! .

وكان الحبيب إليه أن تبقى على ما ذكرناه، إذ لا يعلم، عند حصوله عليها، ما تكون قرعته معه، كالذي كان، وسكت عني في الأمر، ولم ير الانكشاف بسرّه إلى رئيس يفشى عليه، غير رموزات، إذ ذاك لا تنفع، ولو قال لي: «انتسك!» فأنا أخوط على حالي، أو: «اخرج!» لم أطعه ما تهمة، ولا يمكن أن يعطيني تقوية، فيفتضح عند المرباط، إنما كان صنع الأمير أن يطلع ويرى، عسى يتهيا له في النصة شيء، أو يسلم من معرفته، قد تنشب، ولم يجد محيصاً غير ما كان بسيله.

وكذلك ابن الأفطس معه على تلك الحال، وصاحب المربة في المربة لم يتحرك: كل أحد منهم إلى ما ينقض من أمر غرناطة، قد أبهتهم أمرها، وأقلقهم.

ولما بصرت تألبهم على مع الأمير، خاطبت كل واحد منهم بكتاب أقول لهم: «هذا الأمر منجر إليكم! واليوم بي وغداً بكم!» فلم يمكنهم قراءة الكتب دونه، وعرضوها عليه، فحقق^(١) على، وكثبت الأجوبة بإملائة، يقولون: «إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن قد برأنا الله منها!» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنب: فعل من قد وحل، ولم يقدر على أكثر ما قدمنا ذكره، مع الطمع وعمي البصائر، كما وصفنا قبل:

(١) تحرف في المطبوع إلى: «فحقق» بالخاء المعجمة، ثانی الحروف، وحقق عليه حقاً: اشتد غيظه.

وكان رُسُلُهُمْ إِلَى قَبْلِ ذَلِكَ يَحْضُونِي عَلَى الْامْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ، وَقَالَ ابْنُ الْأَفْطَسِ: «أَنَا أَعْتَذِرُ عَنْهُ!» وَلَمْ يَرَوْا كُتُبَ كِتَابِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ، غَيْرَ إِهْذَاءِ ذَلِكَ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ أَسْلَمُونِي إِلَى طَاقَتِي، فَإِنْ كَانَتْ لِي، لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيَّ، لَمْ يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ الْمُرَابِطِ، وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ بَأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ.

فَرَأَيْتُ حَالِي فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ، طُولَ مَدَةِ امْتِسَاكِ لَوْ امْتَسَكْتُ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مَتَالِيَيْنِ عَلَى فِتْنَتِي مَعَ رَعِيَّتِي، لِمَا يَلْزِمُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُرَابِطِ وَالطَّمْعِ، عَسَى يَحْضُلُ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ، وَلَا تَمَكُنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِي وَلَا الْاسْتِفْسَادَ مِنْ أَجْلِي، فَنَحْنُ لَمْ يُعِنْ بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرُّومِيِّ! فَكَيْفَ عَلَى الْمُسْلِمِ، مَعَ حَرْبِ الْكَانُونِ وَقِيَامِ أَهْلِ الْبَيْتِ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقْل! وَلَمْ نَظُنْ نَحْنُ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْفَتِقُ إِلَى هَذَا كُلِّهِ، وَلَا نُعَاجِلُ هَذِهِ الْمُعَاجِلَةَ، وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَقَدَّمُنِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ، إِذَا مَا سَوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ، وَإِنَّمَا طَمَعْنَا بِمَا قَصَصْنَاهُ قَبْلُ، وَحَسْبُكَ!.

وَإِنَّهُ، لَمَّا آلَتْ الْحَالُ إِلَى مَا لَمْ يُجْرَ عَلَى قِيَاسِ، خَرَجْنَا إِلَيْهِ، وَلَمْ نَلْتَوِ سَاعَةً.

٧٨- حركات المرابطين على الميرية:

وَلَمْ يُقَدِّمُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى هَذِهِ، عَلَى إِسْرَافِ جَيْشٍ إِلَى صَاحِبِ الْمِيرِيَّةِ، قَبْلَ ابْنِ عَبَّادٍ، إِذْ كَانَ بِتَخَلُّفِهِ مَوْسُومًا بِالنِّفَاقِ، وَلِأَنَّهُ مُعَاقِدِي عَلَى ذَلِكَ، وَأَنْ تَخَلُّفَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ اتِّفَاقٍ.

فلم يُحرِّك منها مَوْضِعًا إِلَّا وَاجَابَ، وَتَنَاقَرَت مَعَاقِلُهُ أَجْمَع، حَتَّى بَلَغَ الْعِسْكَرُ إِلَى بَابِ الْمَرِيَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - سَاعَةً وَرُودَ الْخَبِيرِ عَلَيْهِ بِخُرُوجِنَا، انْطَبَقَ لَهُ، وَاعْتَلَّ لَمَّا رَأَى مِنْ هَوْلِهِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ، وَقَضَى عَلَيْهِ وَصُولَ الْعِسْكَرِ إِلَى الْبَابِ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَأَقْرَعَ لَهَا وَمَاتَ وَوَكَّيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ، النَّاهِضُ إِلَى قَلْعَةِ حَمَادٍ^(١) عَلَى مَا نَصَفَهُ بَعْدَ هَذَا.

وَقَدْ كَانَ، لَمَّا رَأَى مِنْ طَلَبِ [الْمُرَابِطِ لِبِلَادِهِ] قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ ابْنُهُ الْآخَرُ، يَعْظُهُ وَيُعَلِّمُهُ بِوَجْهِ الْحَقِّ فِيهِ، إِذْ كَانَ يَتَحَلَّلُ فِيهَا، وَذَلِكَ مِمَّا ذَكَّرْنَا مِنْ قَلَّةِ الْمَيِّزِ بِالْأَحْوَالِ، إِذْ يَرَى هَذِهِ الْأُمُورَ مُشْتَعِلَةً، وَيَطْمَعُ إِطْفَاءَهَا بِالْوَعظِ! فَسَاعَةَ وَصُولِهِ، أَمَرَ الْأَمِيرُ بِثِقَافِهِ عَلَى الْمَقَامِ فِي الْحَدِيدِ، وَتَحْيِيلَ أَبَوَيْهِ فِي انْطِلَاقِهِ، حَتَّى انْصَرَفَ إِلَيْهِ فَارًّا مِنَ الْمُرَابِطِ: اخْتَلَسَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ رَجُلٌ لَهُ شَبَّاكٌ، قَذَفَ بِهِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى سَلِمَ إِلَى وَالِدِهِ.

وَفَتَرَ الطَّلَبُ عَلَى الْمَرِيَّةِ لِلشَّغْلِ بِمَا حَدَثَ بِأَمْرِ ابْنِ عَبَّادٍ، وَأَنَّهُ أَوْكَدَ الْأَشْيَاءَ، وَإِنَّ ابْنَ صُمَادِحَ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَصَّى ابْنَهُ هَذَا الْمُسْتَخْلَفَ، وَقَالَ لَهُ: «أَمْسِكْ فِي هَذِهِ الْقِصْبَةِ طُولَ مَقَامِ ابْنِ عَبَّادٍ فِي مُلْكِهِ بِإِشْبِيلِيَّةٍ مَا اسْتَطَعْتَ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ، فَلَا تَتَرَبَّصَ سَاعَةً وَاحِدَةً، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ، وَادْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ!».

فَحَفِظَ وَصِيَّةَ أَبِيهِ، وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةٍ مَا انْقَضَى، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ

(١) قَلْعَةُ حَمَادٍ - قَلْعَةُ بَنِي حَمَادٍ - مِنْ أَكْبَرِ الْبِلَادِ قَطْرًا، وَهِيَ فِي سَنْدِ جَبَلِ سَامِ صَعْبِ الْمَرْتَقَى، وَقَدْ اسْتَدَارَ سُورُهَا بِجَمِيعِ الْجِبَالِ (الرُّوضُ الْمَعْطَارُ).

ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهديةً لِيُهَدَّنَ بذلك أهل المرية، فسُرُّوا بفعله، وقالوا: «هذا هو الصواب، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك!» حتى توسَّطَ الْبَحْرَ، وأعطى للتَّوَاتِيَّةَ مالا جسيما، وأخبرهم غرضه، وخرجَ بالجزائر، وأكرمَه صاحب، القلعة، وأمنه في ذخائره، وأكرمَ ضيافته، وخيَّره حيث يحبُّ السُّكْنَى، فاختارَ تَدَلَّسَ، لأنَّها على الْبَحْرِ، وليغيبَ عن عين السلطان، خوفاً من الطلب، وأنخملَ في ذاته، وأخذَ لنفسه بالأرْجَحَ في أكثر أحواله.

٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتد:

وإن الْمُعْتَمِدَ بن عَبَّاد، لما بصر بدخول الأمير غرناطة، واستنجز وعده، فلم يُلْتَفِتْ، ورأى ثقافتها بالمرابطين وإخراجَ من فيها من الحشم وكلِّ من طمع بالبقاء على حاله، جزع جزعا شديدا، وخاف أن يثني به، إذ رأى الأميرُ مذهبَه في البلاد واستصراخه، ولم يمكن للأمير أن يأخذه بغير ذنب، فيقبح ذكره، وأشار إليه المرابطون بثقافته، فأبى حتى يلوحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يُوْخَذُ به، ثمَّ إنه، بعد أن نهضَ واتبَعَه قُرُور يقول له: «الأميرُ يحتاجُ إلى تذكارك بعض الأمر!» فأبى، ومضى لوجهته، فاراً بنفسه، وأطوى المراحِلَ، حتَّى وصل قُرْطُبَةَ، وقال في طريقه إلى ابن الأَفْطَس: «انجُ بنفسك! فقد تَرَى ما حلَّ بصاحبِ غرناطة، وغداً بنا!».

ثمَّ إنه، بعد أن ظهرَ للأمير نُفُورُهُ، وجَّهَ إليه يأمُرُه بالقدوم عليه، ويقول له: «نريدُ الاجتماعَ بك فيما نحنُ بسبيله» ليقول: «لا!» فيجدُ السبيلَ، كما فعلَ، فراجعَه ابنُ عَبَّاد: «إنَّ ذلك كان وقتَ كُنْتُ ضَيْفاً، وتريدُ الغزو، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي! والآن إنَّما أنت لى جارٍ مثل باديس

وحفيده، وأنت أقدر مني على الشرِّ بجُنودك! فلا يُمكنني التغريرُ بنفسى، عسى أنك تُريد أخذَ بَلَدِي، إذ لا تصحُّ لك غرناطةُ إلا بما يضاف إليها من الأندلس!« فشرط عليه أميرُ المسلمين أن يلتزم الرِّباط، ويقطع القَبالات، وتَحاملاً كثيراً عَلمَ أنه لا يفعلُه، وفي تركِه أو فعله قطعُه، فامتنعَ ابنُ عبادَ جهده، وبنى على الشرِّ.

وبدا [المُرباطُ] بِمُداخلةِ معاقِلِه، فانتشرت، كما جرى لغيرها، وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ، فأرسل إذ ذاك إلى الرومِ، يستغيثُ به، فقعد عنه، خيفةً من التغرير، وهى حُجةُ أميرِ المسلمين على ابنِ عباد، أن قال له: «ظفرتُ بِكُتُبِكَ إلى الرومِ وإرسالِكَ عنه!» فقال المُعتمد: «لو فعلتهُ قَبْلَ أن تُؤخَذَ بلادى بطراً وأشرًا، كُنتُ ألام! وأما بعدَ أن رأيتُ طَلَبِي فى الروح، اضطررتنى الضرورةُ إلى ذلك للمدافعة، ولو يوماً واحداً!«.

وهى كانت علةُ الجميع، وبذلك هلك ابنُ الأَفطس، ومنه أتى.

٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد:

فلما تبين للأمير خلافُه وقُعودُه عنه، شاورَ الفُقهَاءَ فى أمرِه، فأشاروا عليه بغزوِه، فكان غزوُه بعدَ إيلاءِ عُدُرٍ، ولهذا ما أخَّرَ به لِيهْلِكَ من هلك عن بينةٍ ولتكونَ له الحُجةُ على من يُريدُ إخراجَه، فأمرَ الأميرُ سِيرَ بالخروجِ إليه، ونَهَضَ، ونَحْنُ بِمِكناسة، ونازلُه مُدةً طويَلةً، ومعاقلُه قد ذهبَ أَكثَرُها بالطاعة.

وافتح الأميرُ بخلال هذا مدينةَ قُرطبة، واستشهدَ فيها ابنُه المأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْر - رحمهم الله - بِمُداخلةِ من أَهْلِ البَلَد، مع

انخراق المدينة، وأنه لم يمكن ضبطها إلا بأهلها، وكان المعتمد حذراً على قرطبة، يرجو بقاء حاله بثبوتها، ويوصى ابنه بالصبر، ويقول له: «لا تجزع! فالموت أهون من الذل! وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر!».

فلما أخذت قرطبة، انقطع الرجاء، وضاعت إشبيلية، ونفذ ما كان بيده من أجل النفقات، إلى أن دخلها الأمير سير عنة بمداخلة من بعض أهلها، وهلك فيها عالم، وانكشف الحرم، إذ للجيش معرة لا تملك بعد صبرهم على ملكهم، وظهر لسير من اجتهادهم في القتال ما أعجبه ذلك، وقال: «لو أني أقصد مدينة الشرك، لم تمتنع هذا الامتناع!».

وكان دخولها من ناحية الوادي، وهو أسهل الأماكن، ولولا صبر أهلها وكثرة أقارب ابن عباد، لم يستطع [المعتمد] على شيء، فكأنه غلب بالثقات الذين كانت الأبواب بأيديهم، ووكّلهم بمن سواهم، إلى أن لم يكن مع القضاء مدفع، وكان دخولها يوم الأحد في [٢٢] رجب [سنة ٤٨٤] في التاريخ الذي دخلت فيه غرناطة بعدها بعام كامل.

ودخلت قبلها قرمونة،^(١) ومات فيها عالم كثير، ثم التوى أمر رندة^(٢)، ونازلها قرور، إلى أن ظفر بالراضى، وخدعه، وحصل على أمواله، ثم قتله، خوفاً من أن تفتضح تلك الأموال، وقيل: إن ذلك لم يكن عن رأى السلطان، وأمر بقتل كل من ظفر به في رندة المذكورة من الأحرار

(١) قرمونة: مدينة بالاندلس في الشرق من إشبيلية، وهي مدينة كبيرة قديمة، وهي في سفح جبل عليها سور حجارة من بنيان الأول، وبها جامع من البناء وسوقها جامعة (الروض المعطار).

(٢) رندة: بالاندلس من مدن تاركنا، وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر ينسب إليها (الروض المعطار).

والجُندُ الْمُقاتِلين، وقُتلَ فيها رَجُلٌ من العَرَبِ يُعرفُ بِأبى الصَّمصَم، جِراًةً على الله، لِيأخُذَ بِنَتْنِهِ، ونَكَحَها من بَعْدِهِ، وحصلَ على مالِهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ (هود: ١٢٣) وامتسَكَ بالعَبِيد، وصيَّرَهُم إلى السُلطان. ولَمَّا ظَفَرَ بابن عَباد، فَيَا الأَميرُ سِيرُ خَدَمَهُ وَعَبِيدَهُ، حاشى أُمَّهَاتِ الأولاد، وأمرَهُ أميرُ المُسلمين بِإرسالِهِ إليه، فقدمَ إلينا بِمَكْناسَةٍ مع دَخَلَتِهِ، وبَقِيَ فيها إلى أن سَبَقَ معنا إلى أَغْمات^(١).

٨١- قُفُولُ يوسُفَ بنِ تاشفينَ إلى مراكش:

وإنَّ أميرَ المُسلمين، لَمَّا فَتَحَ اللهُ لَهُ في هَذا كُلَّهُ، أَخَذَ في الانصِرافِ إلى مَرُوكُش، وقد بلغَ من آمالِهِ غايَتَها، وامتَلأتْ يَداهُ بالأموال، وقسمَ على أَجنادِهِ بَعْضاً من الفَيءِ، وأهدى إلى الصَّحْراوِي عَمَّهُ من تلكَ الذخائر. وأمرنا أن نَسْتَوِطِنَ أَغْمات، فَأَتَيْنَاهَا، ولَقِينا من أميرِ المُسلمين كُلَّ جَميل، وأنزَلنا بدارِهِ الصُّغْرَى في الحَرِيم، ولم يَزَلْ يَعتَقِدُنَا من إنعامِهِ، كَيْفَما هَيَّا اللهُ على يَدَيْهِ، ووَجَدَناهُ بَعْدَ اللهِ أَرْفَقَ بنا، وأحسَنَ مَذْهَبٍ فينا من الناسِ أَجمَعين، ومن كُلِّ من سَبَقَ إليه مِنّا إِحساناً.

٨٢- عَزَلُ المَتوكلِ بنِ الأَفطسِ صاحِبِ بَظليوسِ ومَهْلَكِهِ:

وبَقِيَ ابنُ الأَفطسِ يَتَخَدَّمُ أمرَهُ، وكان يُدَارِي ابنَ الأَحسَن، وَيُفَعِّلُ لَهُ في كُلِّ ما أَراد، طَمَعاً مِنْهُ في البَقاءِ لِحَيِّهِ، وهو، في ذَلِكَ كُلِّهِ، يُنْهَشُ، وَيُرى آياتُ تَدَلُّ على الشَّرِّ، وأنَّ المَذْهَبَ في أَخْذِهِ، ودَاخَلَ عَلَيْهِ ابنُ الأَحسَنِ في بَلَدِهِ، فَشَعَرَ بِذلِكَ، وَتَيَقَّظَ لَهُ، واستوحشَ مِنَ المُرابطين، ودَاخَلَ الرُّومِيَّ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِ المُطالَبَةُ، وَسُعِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا، بَعْدَ السَّعْيِ سَرًّا، وهو، في ذَلِكَ كُلِّهِ، مِثْلُ السَّمَكَةِ العَاجِزَةِ المَوْصُوفَةِ في «كِتابِ دِمْنَةَ» لَم تَزَلْ في تَقَلُّبٍ

(١) أَغْمات: بِأَرْضِ المَغْرِبِ بِقَرَبِ وادِي دَرَعَةِ. (الروضُ المَعطار).

وَتَرَدَّدَ، حَتَّى أَخَذَهَا الصِّيَادُ، وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّطَ: يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ، وَيُخَاطِبُ أَلْفُونَشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلْمَةٍ، إِنْ دَهَتْهُ مِنَ الْمُرَابِطِينَ، وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحَذَرَ وَالْخَوْفَ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ، وَسَعِيَهُ عَلَى أَبِيهِ، وَهُوَ رَجُلٌ سَجِلْمَاسِيٌّ فَقِيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ، اسْتَوْطَنَ بَطْلَيْوَسَ، وَاکْتَسَبَ فِيهَا مَالًا، يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ صَاحِبِهَا.

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ، لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ [عَمَل] بِهِ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بِقَلْبِهِ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا مَحَالَةَ، فِيهِ، فَإِنَّ الْمُدَارَةَ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ، وَالِاسْتِعْمَالُ مُنْقَطِعٌ، وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، إِلَّا أَنْ تَدْرَى عِنْدَ ذِمِّ الْعَاقِبَةِ مَعَهُ أَنَّكَ مُسْتَغْنٍ عَنْهُ بَغْيَرِهِ، وَإِلَّا، فَأَنْتَ لَهُ طُعْمَةٌ.

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ: «هَذَا التَّرَدُّدُ لَا يَجْزِيكَ، وَلَا يَغْنَى عَنْكَ مَا تُرَى مِنْ إِظْهَارِ الطَّاعَةِ لِلْمُرَابِطِ! وَلَا طَاعَةَ أَهْلِ بَلَدِكَ لَكَ وَمَحَبَّتَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْضُونَ عَلَيْكَ! فَلَوْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ بَعْضَ حَقِيقَةِ فِي عَزِيمَةِ، لَمَّا أَبْقَوْا عَلَيْكَ، كَالَّذِي رَأَيْتَ صُنْعَ بَغْيَرِكَ! فَإِنَّمَا أَنْ تُصْنِفَ لِلْمُرَابِطِ، فَلَنْ تَبْلُغَ مَرْضَاتِهِ إِلَّا بِالْإِنْخِلَاعِ لَهُ وَوَضْعِ الْبَلَدِ فِي يَدَيْهِ، وَتَقْنَعُ بِأَنْ تَكُونَ مُتَحَرِّيًا، مُتَخَلِّيًا عَنِ الرِّيَاسَةِ، فَعَاجِلُ ذَلِكَ، تَجِدُ عِنْدَهُ الْأَمَانَ! وَإِنْ نَفَرَتْ نَفْسُكَ عَنْهُ، فَلَا تَتَأَخَّرُ عَنِ الْفِرَارِ مِنْهُ بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَجَمِيعِ أَمْوَالِكَ! يَجْعَلُكَ الرُّومِيُّ فِي أَىِّ بَلَدَةٍ شِئْتَ، وَرُبَّمَا سَوَّغَهَا لَكَ، كَمَا فَعَلَ بَابِنُ ذِي النُّونِ فِي بَلَنْسِيَةِ، وَتَتْرُكُ مَدِينَةَ بَطْلَيْوَسَ، لَا تَدْخُلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دَاخِلَةً، فَيَحْصِلُ لَكَ النِّجَاطُ بِمُهْجَتِكَ،

وسلامة البلد للمسلمين! فقال له أبوه، وسفّه رأيّه: «لا أترك موضعي! وعسى أن تهبيّ الأقدارُ ضدَّ ما تظنُّ!» فخرج عنها ابنه، ونجّا بماله وأهله، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه، وبقيَ الشيخَ لحينّه، حتى نفذ أمرُ الله فيه.

وإنَّ الأميرَ سيرَ، لما أراد من التخدّم لأمرِ بطليّوس والحيلة فيها، لم يثقْ بنفسه فى ذلك، لحدوث ولايته الأندلس، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعانى إلاَّ بدآوائه، ولا يُلْقَى أحدٌ إلاَّ بحجره، فتخيّر لذلك ابنَ رشيّق، لأنّه أندلسيّ، عالمٌ بالمكايد فى الفتون، مع ما كان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِط، وأنَّ ثقافه ذلك الوقتَ لم يكن إلاَّ على رَغْمٍ منه بمُضَادَّةِ قَرُور له، فانتَهز الفرصةَ فى إطلاقه، والمكافأةَ له على صَنِيعه بما يأمره من أمرِ بطليّوس.

وخاطبَ السلطانَ فى أمره، بعد أن أطنبَ من صِفَةِ حاجته إليه، فقبلَ قَوْلَه، وأمرَ بإرسال، وألطفَ له القولَ، واعتذر إليه ممّا جرى، وأمر له بمالٍ جسيم، ونَهَضَ، بعد أن حدّ له الوقوف عندَ أوامرِ سير، وأنّه مُسْتَحْيِيه، فمضى، وفجئ الناس من انطلاقه ما تعجّبوا منه وخلطوا القول فى ذلك، كلٌّ أحدٌ على مقدار عقله أو شهوته.

فلما وصل، تخدّم أمرَ بطليّوس بكلِّ وجه من المداخلة لأهل البلد ومن معه فى القصبة من الحرس وغيرهم، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً، ويفتحوا له [الباب] فكان من ذلك ما حاولوه، وتعلّقوا بالسور عند الإمارة التى كانت مع من دأخله، وتقبّضَ على الشيخ وابنيه الفضل والعبّاس، واحتوى له أموال جسيمة، وأمر سيرُ بإخراجه للقتل، بعد أن رأى فى نفسه

هوانًا عظيمًا، وشدهُ على المال، ونقم عليه ما كان من عَمَلِهِ مع النصارى والمَعَاوِلِ التى أعطاهم، فأمرَ بِقَتْلِهِ مع ابْنَيْهِ الْفَضْلُ والعباس - رحمهم الله .
وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغَرِ لِلْمُرَابِطِينَ، كأنَّه لم يكن قطُّ لغيرهم، وفيَّ أهله وبناته، وجميعُ ما تركه، ثم صار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّومِ، حَنَقًا لما جرى على أبيه، يطلب الثَّارَ، ويتطرقُ معهم بلاد المسلمين .

٨٢- نشاط المرابطين ضد النصارى

استيلاء السيد، لذريق على بلنسية

وصرف المُرابطون وجُوههم إلى فِتنة الرُّومِ ومُقاصَّاتها، بعد إكمالهم لأخذ سلاطين الأندلس، يقولون: «إنَّه لا ينبغي لنا قتالُ الرومِ، ونترك وراءنا الأعداءَ، مِمَّنْ يُؤاسَى عَلَيْنَا مَعَهُمْ!» فكلُّها تَهَيَّأتْ بلا مَشَقَّةٍ غيرِ إشبيلية، فوقع فيها بعض التغدُّر، كما قدَّمنا ذِكره، فسُبَّحان المقدر الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كُنْ» فيكون، هذا نصُّ ما كان ولا نعلم ما يكون، كما قال بعض الشعراء:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ

وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِى غَدٍ عَمٌ

ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بِلَنْسِيَّةٍ ما لم يَنْبَلِجْ بها ما يوصف، فإنَّ الحديث لا يَحْسُنُ ذِكره إِلَّا بَعْدَ تَفَضُّى آخِرِهِ، والقوسُ لا تُكَبَّدُ إِلَّا بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا، فإذا استكمل الخَبَرُ، طابَ إيرادُه وحسُنَ مَوْقِعُه، ونُمِّقَ بَعْضُه بِبَعْضٍ، ولو أننا ندعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يتمُّ فيها خَبَرُ بِلَنْسِيَّةٍ، لَأَتَيْنَا به بَعْدَ أن يكون الظَّهَرُ للمسلمين، وتركنا هذا الدِّيوَان مَخْرُومًا، انتظارًا لِمَا يكون فيه أملٌ بعيدٌ.

واستثنافُ تأريخ له فصولٌ لا يُعنى، لا سيَّما أننا أخذنا أنفسنا فى حيزٍ
تمامه بما يليق بالزمان، ورُضُّناها بما تستمرُّ عليه من ترك الشرِّ والتَّزُّه عما
فات، وإعمال قطع اليأسِ عما قِيل، واليأس عما فات يُعقِّب راحةً، وكُرْباً
مُطعَمةً تعود دُرَّاخاً.

فإذا كان ذلك كذلك، فأول ما يَجِبُ أخذُ أنفسنا به إخلاصُ النِّيَّةِ لأمير
المسلمين - أيدهُ الله! - وَتَمَنَّى الخير له، لأنَّ صلاحَ المسلمين بصلاحه،
ومن الديانة اعتقاد ذلك، لِمَا أُمِرَ به من طاعة الأئمة والنَّصح لكلِّ مُسلم،
لا سيما أنَّه مُحسِنٌ إلينا، ثمَّ اقْتَصَرْنَا على النظر فيما يخصُّنا وأنزلنا أنفسنا
بمنزلة من لم يكن قطُّ إلاَّ على هذه الحالة، واعتبرنا بمن كان قَبْلنا، ونظرنا
لمن هو دوننا.

٨٤- تأملات فى تقلب الأقدار:

وما حلَّ بابن الأَفْطَس، فشكرنا الله على ما نَجَّانا منه، وصرَّفنا وَجْهَ
اهتبالنا إلى ما ننتفع به، وغلبنا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية، فإنها تحمل
على الفضائل والإنصاف، ومَعْرِفَةِ حقائق الأشياء، كما أنَّ الحيوانية تحمل
على الغلبة، وإيثار الشهوات، والحيدة عن سُبُلِ المَعْرِفَةِ.

ورأينا أنَّ شُغْلَ البال بما مَضَى لا يَرُدُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذَّين
يُنحِلان الجِسْمَ ويذهبان اللَّبَّ، وأنَّ الحَرَجَ على ما لا يكون تعبٌ للبدن
ومَشَقَّةٌ للإنسان، لأنَّ الفلاسفة تقول^(١): لا يُلْتَذُّ بما مَضَى، ولا يُدْرَى ما
يكون فيما بَقِيَ، وإنما له لذةُ سَاعَتِهِ التى هو فيها، أو عَمَلُهُ الذى يَجِدُهُ
لِمَعَادِهِ، فإن أعقَبَ الله بخير، فَلَنْ نَخْسَرَ ما سَلَفَ من أيامنا، فَتَهْرَمَ قَبْلَ أوان

(١) فى المطبوع: «لأنَّ تقول الفلاسفة» ولا وجه له.

الهِرَمَ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي أَشَدَّ مِنْ هَذَا، فَيَحِقُّ اغْتِنَامُ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَنَعْدُهَا
أَعْيَادًا، وَنُحَدِّثُ لِلَّهِ عَمَلًا يَرْضَاهُ، وَإِنْ كُنَّا أَبَدًا عَلَى هَذِهِ الرِّقْبَةِ بِلاَ انْتِقَالِ
(وغير متمكّنٍ من ذلك) فَتَوَطَّيْنُ النَّفْسَ عَلَى مَا يَعْلَمُ أَنَّهَا عَلَيْهِ دَائِمَةٌ، أُخْرَى
وَأَرْوَحُ لِلْبَالِ.

ثُمَّ إِنِّي اعْتَبَرْتُ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا، الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ، فَوَجَدْتُ
نَفْسِي مُبْلَغَةً مِنْهَا كُلِّ أَمَلٍ، وَإِنْ انْقَطَعَتْ، فَلَمْ نَصْحِبْهَا، وَنَحْنُ مِنْهَا عَلَى
يَقِينٍ بِتَخْلِيدِهَا، بَلْ، لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِهَا، وَالخُرُوجُ مِنْهَا فِي
مُدَّةِ الْعُمُرِ خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ غَرْقٍ، عَسَى بِذَلِكَ أَنْ يُعْظِمَ اللَّهُ الْأَجْرَ،
وَيُكَفِّرَ السَّيِّئَاتِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ زَاجِرًا عَنِ الْآثَامِ، وَيَعْتَبَرُ فَقَدْ مَالَهُ كَأَنَّهُ
لَمْ يَكْتَسِبْهُ بَرَزِيَّةٍ نَفْسَهُ إِذْ حَانَ حَيْثُ، فَيُقَدِّمُ بِهَا النِّظَرَ، بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى، قَبْلَ
الْمَوْتِ وَحُلُولِ الْفَوْتِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ! لَا شَرِيكَ لَهُ.

سُئِلَ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنْ عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ:
«هُوَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ بِالْمَوْتِ
قَبْلَ لِقَاءِ الْفَوْتِ».

obeikandi.com

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النفي

obeikandi.com

٨٥- المؤلف والشعر

وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس، ورتبة دولتنا، وما انتهت إليه فيها أحكامنا، حسبما ساعدتنا عليه أذهاننا، ونالته مقدرتنا، إلى انصرام الأمد، فلنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق بذلك من شعر نظمناه وقت فراغ البال وجمام النفس، مع ما أعان على ذلك من النظر إلى كل مستحسن، والسرور بطيب كل خبر.

على أنني لم أنتحله قبل، ولا كان من شأني الأخذ به، إلا على سبيل الاستطراف والإطناب في وصف شيء أريد نعتة، فربما صنعت في البيت أو البيتين أياماً، أحضر لها ذهني، وأحد فكري، فتصدع بعد كد، وما أكاد، كالشيء المستغرب من غير معدنه، فيشدها الكتبة في مجالس الاحتفال للراحات، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشغل، كالذي يأخذ به الملوك أنفسهم في ساعات الدعة، ونضيف معها لمعاً من آداب وسير تحضرني، مما يختلج في الخاطر ويجريها الإنسان بصحبة الزمان وتنقله في الحالات، وقيل لرجل: «من أين لك هذا العلم؟» فقال: «قلبا عقولا، ولساناً سؤلاً!».

٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعهِ ومصيره:

وكل شيء إنما ينطبع في النشأة وحين المولد، ولقد طالعت من مولدي أشياء ميزتها من طبائعي وأخلاقى، على أن واضعيه ألفوه ونحن في حال الطفولية، لم يوصل إذ ذاك إلى معرفة شيء من أحوالى، وكتمه عني سماجة مدة، حتى وقع السفر إلى يدى غير ظن، فشق ذلك عليه، خوفاً على

من العُجب بما كان فيه مَنْصُوصًا من السعادة، فطالعتُ منه عجائبَ
وغرائبَ، إذ كان المَوْلِدُ رصدي، وكان الطالعُ الحوتَ بأربعِ درَجٍ، وصاحبُه
المُشْتَرَى في الحادي عَشَرَ مع الزُّهرة، وسَقَطَتِ الشمسُ في الدَّلْوِ مع
عُطارد، واتَّفَقَتِ النُّحْسانُ في الثَّوَرِ بَيْتَ الأُخُوَّةِ والقَرَابَةِ، وصار القمرُ هَيْلَاجًا
إذ كان في السابعِ من البُرُوجِ، فصلَّحَ لذلكَ لأجلِ سَقُوطِ نَيْرِ النُّوبَةِ، والزُّهرة
كَدْخُدَاهُ، دَلَّتْ بِمَكَانِهَا - واللهُ أَعْلَمُ - على قَوْلِهِمْ، على سِنِّيها الوُسْطَى
خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدها المُشْتَرَى سِنِّيهِ الصَّغْرَى اثْنِي عَشَرَ عامًا، فجميعُ
ذلكَ سبعةٌ وخمسونَ عامًا، واللهُ بغيهِ أَعْلَمُ!

وتكَلَّمَ (الطالعُ) على أربابِ مُثَلَّثاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ على تقسيمِ السعادةِ
للمَوْلُودِ، فكانَ رَبُّ المِثْلَةِ الأولى رُحْلَ، ومَعَهُ المِرْيَخُ في بَيْتِ غُرُوبِهِ، فدلَّ
على أَنَّ الثُّلُثَ الأوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيرِ والتَّنْغِيصِ والتَّكْدِيرِ، ومِثْلُهُ الثُّلُثُ
الثاني الذي لِعُطارد، إذ كان في بَيْتِ الشَّقَاءِ والهُمُومِ، مَحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ،
فدلَّ على مِثْلِ ذلكَ وأشدَّ، كالذي تَبَيَّنَ الآنَ، والقِسْمَةُ الثالثةُ للمُشْتَرَى، وهو
في بَيْتِ الرَّجَاءِ والسَّعادةِ، فدلَّ على ضِدِّ ذلكَ كُلِّهِ، وأُطْنَبَ في وَصْفِ
السَّعادةِ فيه، لا أَدْرِي كيفَ هو، إذ هو بعيدٌ في القِياسِ، قريبٌ في قدرةِ
اللهِ.

ثمَّ وَصَفَ خَبَرَ الأَمْرَاضِ، فدلَّ على الأمراضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوداءِ
وَحِدْثانِ النفسِ بأشياءَ مُخَوِّفَةٍ.

وذكرَ خَبَرَ البَينِ، فقال: حيثَ شَهِدَ شَاهدٌ، يكونُ الوَلَدُ، وشَهِدَ آخَرُ بأنَّ
لا وَلَدَ، ودلَّ على القِلَّةِ، إلَّا أَنَّهُ لا بُدَّ من كَوْنِهِمْ، وإنْ كان ما ذَكَرْنَاهُ دليلاً
على قِلَّتِهِمْ، وربما كان ذلكَ في نِصْفِ العُمُرِ، فَظَهَرَ ذلكَ بِشَأْنِهِمُ الآنَ.

وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ، وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَهَيَّأُ فِي نَصْبِهِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ، وَالْبَحْثِ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُعْتَقَدِ، فَإِنَّ الزُّهْرَةَ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيُوتِ رُحْلٍ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ، فَتَعَفَّفُ، وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ.

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ، وَهُوَ عَطَارِدٌ، فِي بَيْتِ رُحْلٍ، فَدَلَّ عَلَى الْمِيلِ إِلَى الصَّغَارِ ذَوِي الطَّبَاعِ الْعَطَارِدِيَّةِ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةٌ وَلَا مُشَاكَلَةٌ.

كُلُّ هَذَا قَدْ عَلِمْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا، وَمُطَّلَعٌ عَلَيْنَا، فَلَمْ نَشْكُ فِي صِحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْآيَامِ وَمُجْرِي الْأَفْلاكِ!

(الْفَلَكَ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣) وَسَمَّاها سَمَاءً، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَفَعَ سَمَاءً، فَهِيَ، لَارْتِفَاعِهَا عَلَيْنَا، سَمَاءٌ، وَهَيَمَتْهَا: فَلَكٌ، لَا سَمَاءٌ).

٨٧- آراء المؤلف في التنجيم:

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا هِيَ دَلَائِلُ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ، كَالْغَيْثِ الْمُنْزَلِ ذَكِيلٌ عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ، أَوْ كَالنَّارِ الْمَشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُحْرِقَةٌ، وَيَحْتَجُونَ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ - فِي قَوْلِهِ: أَقْبَلْتُ بِحَرِيَّةٍ، فَتَشَاءَمْتُ، فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيقَةً، وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ ذَكِيلٌ عَلَى بُرْنِهِ، يَرْجَى لَهُ ذَلِكَ إِنْ أَخَّرْتَهُ الْمُدَّةَ.

وجيء بطبيب عالم إلى أحد العظماء من بلاد الهند، فلما شكى المريضُ إليه، قال له الحكيم: «قد برئت بحول الله!» فلما أعلمه التَّرجُمانُ بقوله، قال العليلُ: «إن شاء الله!» فأجابَه الحكيمُ: «إنَّ الله قد شاء: لم يسقُنِي إليك من أرض الهند إلَّا وقد قضى بصحتك!».

وقد أغلَى أهلُ الهند فى هذا العلم، ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا، حتَّى إنَّ فيهم من لا يولِّى مَمْلَكَتَهُمْ إلَّا مَنْ شَاكَلَ طَالِعَهُ طَالِعَ الدَّوْلَةِ، وهم يزعمون أنَّ طَالِعَ الْمَلِكِ، إن لم يكن وتَدًّا من أوتَادِ الْمَمْلَكَةِ، أو كان منها ثانى عَشَرَ أو سَادِسًا، وأَمَكْنَةُ الْكَوَاكِبِ غَيْرُ مُتَّفَقَةٍ لِّذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَنْحَسِبُهَا، ولو بلغ الجَهْدُ من الاحتياطِ عليها: إمَّا تُهْلِكُهُ، أو يُهْلِكُهَا، ضَرُورَةٌ تَسُوْقُهُ الْأَقْدَارُ إِلَيْهَا، فكانوا يتخيرون الطَّوَالِعَ قبل اختيار العقول والمذاهب، يَرَوْنَ أَنَّ الْقَدَرَ أَغْلَبُ من الرأى، ويقولون: «لك سعادةُ الدولة ومُسَاعَدَةُ الْأَقْدَارِ! هَيَّأتْ لَهَا هَذِهِ الْأَرَاءَ لِطُولِ الْمُدَّةِ».

ثمَّ إِنَّهُمْ يزعمون أنَّ الْعُمُرَ الطَّبِيعِيَّ مائة وعشرون عامًا، وأنَّ الْقَوَاطِعَ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَهُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَحْدَاثٍ دَاخِلَةٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، عَرَضِيَّةٌ، إمَّا مِنْ فساد المزاج، فتخورُ الطَّبِيعَةُ، إذ جعلوا الأربعة طبائع التى فى الإنسان قِوَامَهُ كَأَرْكَانِ الْبَيْتِ، فَمَتَى فَسَدَتْ مِنْهَا طَبِيعَةٌ، اعتَلَّ الْجِسْمُ، وإن تَغَيَّرَتْ كُلُّهَا، مات، وجعلوها مُشَاكِلَةً لِلْأَزْمِنَةِ: فَالِدَّمُ رَيْبَعِيٌّ، وَالبَلْغَمُ شَتْوِيٌّ، وَالصَّفَرَاءُ صَيْفِيَّةٌ، وَالسَّوْدَاءُ خَرِيفِيَّةٌ، فَمَنْ عَالَجَ كُلَّ زَمَانٍ مِنْهَا بِضَدِّهِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ، فَقَدْ أَصَابَ، وَلَا بَاقِيَ مَعَ اللَّهِ!.

و [لَمَّا] احتجَّ عليهم بالذى يموت فجأةً أو فى زَحْمَةٍ، أو بَارَقُ سَبَبٍ،

وهو يظهر صحيح الجسم، أضافوا إلى الطب من علم النجوم، واتفق رأيهم أن لا فلسفة تتم حتى يجمعها، وأن لا قوام لأحد العلمين دون الآخر، فقالوا: إنما ذلك من الهياليج الساقطة، فإن المولود، إذا كانت هياليجه ساهرة، صح ارتباط نفسه بجسمه، فلا تخرج إلا عن مشقة مع تمام المدة التي تدل عليها العطية، وإن كانت هياليجه ساقطة كلها، عرض للموت بارق سبب، فإن لم يكن له هيلاج، سيرت المظلمية وعد لها أعوام، ويكون القطع عند تمامها، وقد يكون في تحاويل السنين، وإن تتم العطية عند انتهاء صاحب حد الدرجة إلى موضع نحس، قطع أو شبه القطع، إن لم تساعده النجوم السعيدة، وسموه الجان بختان، وهو دليل الحياة بإذن الله.

ومنهم من رأى ذلك قوة لنفسه، ورضى بما قسم له البارئ - عز وجل - فلا ينقد على نفسه، وعيش طيب العيش، يدرى أن لا قاطع يقطع به في تلك المدة، ويشجع لقول على - عليه السلام - لرجل قد أسن: «أية شجاعة قد فانتك!» يعنى: لو أنك قبل اليوم تدرى أن هذا يكون عمرك لم تبال.

وأما أنا، فأقول: إنه تأنيس ما لم تقرب المدة، وزيادة في ألم المنيّة إذا اقتربت، ولا يكون الطب إلا ليصح البدن مدة الحياة لكرهية العيش في نكد، وأما لدفع أجل، فلا ينفع شيء.

٨٨- آراء طبية في الأغذية والنبيذ:

قال بعض الحكماء: «الناس يعيشون^(١) ليأكلوا، ونحن نأكل لنعيش» فتأمل معناه.

وجمع أحد الملوك أطباءه، فقال لهم: «أعلموني بالدواء الذي لا داء

(١) في المطبوع: «يعيشوا».

معه! فكلُّهم تكلم على الأدوية والمُعانة بها، غيرَ واحدٍ منهم كان أكبرهم سنًا، فردَّ عليهم أن: «ليس عن هذا سألکم الأمير! ولكنَّه يأذنُ لى فى الكلام؟» قال: «قل! فأنتم مَعْدِنُ الحِكمة والفِلسفة!» فقال «أيُّها الأمير! إن الدواء الذى لا داء معه أن تكونَ، عِنْدَ أَخْذِكَ للغذاء، تَتْرُكُ مِنْهُ بِقَدْرٍ ما تَتِمُّ بِهِ الشَّبعة، ولو لُقْمَتَيْنِ، ولا تتَمَلَّأ! فذاك دواءٌ لا يَحْتَاجُ معه إلى طَبيبٍ!». وذكَّرَ هذا عن الرَّشيد، أنه قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَصْعَةً بِطِعامٍ، فلما أَكَلَ قال: «هذا غِذاءٌ ودواءٌ! فما زِيدَ عَلَيْهِ كان داءٌ!» وعلى أَنَّهُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ. وقال النَبِيُّ ﷺ: «أَصْلُ كُلِّ داءٍ البُرودة، وأَصْلُ كُلِّ دواءٍ الحِمِيَّة!» وقيل: «أَقْلِلْ طِعامًا، تَحْمَدَ مَنامًا!» وقالت الحُكَماءُ: «إنَّ الكثرة والقِلَّةَ عَدُوًّا الطَّبيعة».

قد نَرَى فى الخَمْرِ ما، إذا اعتدل مزاجُه مِنْهُ بالكثير، لم يَجِبُ أن يُقالَ له: «قَلِّل!» ولا مِنْ شاربٍ وافقَه القليلُ، أن يُقالَ له: «ازدَد!» غيرَ أنَّ العاقلَ يَرى ذلك بحسِّه، ويعلم ما لم يُوافق طَبْعَه، فلا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا. وسُئِلَ حَكِيمٌ عن الخَمْرِ، فأجابها، إِلَّا أَنَّهُ قال: «إذا أَخَذْتَ كَيْفَ يَنْبَغِي وَمَعَ مَنْ يَنْبَغِي، فلا بأسَ بِها: تَفْرِحَ النَفْسُ، وتَذْهَبَ بِالْهَمُومِ، وتَشْجَعُ، وتحْمِلُ على الفِضائلِ، والتَزِيدُ مِنْها شَرًّا مَشِيرًا، كما أَنَّ التَّخْلِيلَ مِنْها خَيْرٌ كثيرًا!»^(١).

وشبَّهوا كَثِيرَها فى الأبدانِ مِثْلَ الثُّرْمُوسِ الذى إذا أَكْثَرَ عَلَيْهِ الماءُ وطالَ مَكْنَتُهُ، اسْتَحَالَ وَذَهَبَ نوره.

(١) الخمر محرمة شرعًا على جميع الوجوه، وقد تغيَّرَ أسلوبُ المؤلِّفِ نحوها فيما يلى بقوله: «لا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة».

وقيل فيها:

سَأَلَتِ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا
وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلُ
فَفَضَّلَ مَا لَهُ شِبْهُ
وَطِبُّ مَا لَهُ مِثْلُ
فَقُلْتُ: الْخَمْرُ تَعْجِبُنِي!
فَقَالَ: كَثِيرَهَا قَتْلُ!
فَقُلْتُ: كَمْ تَقْدِرُ لِي!
فَقَالَ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ:
وَجَدْتُ مِنْ طِبَاعِ
أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ
لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

هذا ما قاله الناسُ، ولا خيرَ فيما لا تبيحهُ الشريعةُ، ولا بأسَ بعِلْمِ
الشيءِ عند الحاجةِ إلى وضعِهِ، وبعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِهِ، لمن ابتلى بها
أن يأخذَهَا على حقِّهَا.

وقالوا: إنه ممَّا يؤلِّدُ فرحَ النفسِ الشربُ بآنيةِ الذهبِ وشمُّ التَّرجِسِ، كما
أنَّ الشربَ بآنيةِ القَزْدِيرِ وشمُّ البَتْفَسَجِ ممَّا يؤلِّدُ الحزنَ.

وقالوا: إنها من أكبرِ أدويةِ السَّوداءِ في تلكِ الساعةِ، وتعقَّبُ سَوْدَاءَ أَشْرَ
من الأولى إن أكثرَ منها، والعلةُ في ذلك أنه لا خيرَ فيها إلَّا ما رَقَّ منها،
وحالَ عليها الحَوْلُ، وعطرتَ رائحتهُ، وهى حارةٌ يابسةٌ، ثمَّ تستحيلُ إلى

البرد عن شرب الماء للضرورة، وتَجِدُ الرطوبة منها، كِبِدِيَّةُ اللَّوْنِ، غليظةُ
الرَّوْتَقِ، مولدةٌ لِلدَّمِ والنَّوْمِ، وهى الموافقةُ لزمان الشتاء، وَلَيَتَّخِذُ منها لكلِّ
زمان ما يوافقُ طَبِيعَتَهُ، ويخالفُ هَوَاهُ.

ورأوا أَنَّ أَخْذَهَا بعدَ الغَدَاءِ بساعةٍ، لِيَنَامَ الإنسانُ قَبْلَهَا وَيُرَوِّى مِنَ الماءِ
أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ، وكذلكَ الجِمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ الأَعْضَاءِ وتودُّعِهَا
بالنون بعدَ الطعامِ، فى صَبِيحَةِ تلكَ الليلةِ، عندَ تَمَلُّى الأَعْضَاءِ، واحتياجِهَا
إلى إخراجِ الفضولِ، ونشاطِهَا، ولا يَكُونُ ذلكَ عن تَكَلُّفٍ، حتَّى تَمِيلَ
الطَبِيعَةُ إِلَيْهِ، لا سِيَّما إِنْ سَاعَدَتَهَا النَفْسُ، ويوافقُ ذلكَ الشَّخْصُ هَوَاهَا، إِذِ
النَفْسُ والجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ: متى اعتَلَّ أَحَدُهُمَا، تَضَعُضَعُ الآخَرُ، ومتى
صَحَّ جَمِيعًا، قَوِيَتِ المَنَّةُ وتكاملتِ الصَّحَّةُ، ويكونُ ذلكَ أَسْرَعَ فى البَاهِ،
كما أَنَّ المَعْدَةَ متى اشْتَهَتْ شَيْئًا، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ.

قال جَالِينُوسُ: «إِنَّ المَرِيضَ الذى يَشْتَهَى أَرْجَى مِنْهُ للصَّحِيحِ الذى لا
يَشْتَهَى!» أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّبِيبَ المَاهِرَ، إِذَا عَانَى العَلِيلَ، وَقَاسَ بَيْنَ دَوَائِنِ
يَكُونُ نَجْعُهُمَا واحِدًا، قَصَدَ إِلَى الذى يَعْلَمُ أَنَّ النَفْسَ عَلَيْهِ أَقْبَلُ فى حالِ
الصَّحَّةِ، فَيَعْمِدُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّفَرْجَلِ وشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فَعْلُهُمَا
واحِدٌ، غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّفَرْجَلِ يَلِيقُ بِالنَفْسِ، وهى إِلَيْهِ أَشْوَقُ، فِيرى الحَكِيمُ
تَوَقَّانَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَيْهِ فى الدَّوَاءِ^(١)، وَيَنْجَحُ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ.

وَلَمْ يَرَوْا لِشَرَبِ الخَمْرِ عندَ العطشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرَبِ الماءِ، لِلتَّوَقَّانِ
وإِطْفَاءِ الحَرَارَةِ وَقَمْعِ الأَبْخَرَةِ.

وَلَيْسَتْ عَمَلُ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فى النِّهَارِ مَرَّاتٍ، فَهُوَ أَسْرَعُ
لِهَضْمِهِ وَأَشْهَى لِمَعْدَتِهِ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ، قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: لِأَنَّ

(١) فى المَطْبُوعِ: «زائدا على فى الدَّوَاءِ» ولا وجهَ لَهُ.

أَتَمَلًّا شَرَابًا أَحَبُّ عَلَىَّ مِنْ أَنْ أَتَمَلًّا طَعَامًا! فَإِنَّ التُّخْمَةَ، إِنْ تَعَقَّدَتْ، قَتَلَتْ، وَإِنْ تَحَلَّلَتْ، أَسْقَمَتْ» قَالَ بَعْضُ الْفَلَّاسَةِ: «خَفُّوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ مِنْ أَوْقَارِ الشَّهَوَاتِ، لِتَصْعَدَ إِلَى عَالَمِهَا الْأَكْبَرِ، فَتَأْتِيَكُم بِعَجَائِبٍ مَا هُنَالِكَ!».

وَقَالُوا فِي الشَّرَابِ إِنَّهُ يُسَلِّي الْهَمُومَ، وَأَنَا أَقُولُ: إِنَّهَا تَهَيِّجُ الْهَمُومَ، إِنَّمَا هُوَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ: إِنْ أَلْفَتْ سُرُورًا، حَرَّكَتْ مِنْهُ مَا سَكَنَ الْإِنْسَانُ عَنْهُ، وَإِنْ أَلْفَتْ هُمُومًا، ذَكَرَتْ لِمَا هُوَ فِيهِ وَأَشَدَّ مِنْهُ، وَفَتَقَتْ إِلَى طُرُقِ السُّوءِ، وَالْهَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يَنْتَظِرُ الْإِنْسَانُ مِنْ سُوءٍ، فَذَاكَ الَّذِي لَا يُسَلِّيهُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَأْتِيهِ مِنْهُ نِعَاسٌ، وَالْغَمُّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا مَضَى، فَرُبَّمَا سَلَتْ الْخَمْرُ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ، وَلَا شَيْءٌ يُوَلِّدُ النَّوْمَ مِثْلَ الْغَمِّ بِتَذْكَارٍ مَا خَلَّفَ، أَوْ النَّظَرِ فِي كِتَابٍ لَا يَنْبَغِي مِنْهُ تَعَلُّمًا أَكْثَرَ مِنْ مِطَالَعَةٍ مَا مَضَى.

وَمِنَ الْجُهَالِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْعِشَاءَ قَرِيبَ الْمَنَامِ يُوَلِّدُ الرِّقَادَ مِنْ أَجْلِ التَّمَلُّي، وَأَنَا أَقُولُ: إِنَّهُ يَمْنَعُهُ، فَإِنَّ الْحَرَارَةَ تَصْعَدُ إِلَى الدِّمَاغِ مِنَ الْأَبْخَرَةِ وَكُلُّ حَارٍّ مَانِعٌ لِلنَّوْمِ، كَمَا أَنَّ الْبَرْدَ فِي الدِّمَاغِ مُوَلِّدُهُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَدْمِغَةَ الْبَارِدَةَ كَثِيرَةُ النَّزَلَاتِ مِنَ الرِّطُوبَاتِ، وَتَوَلِّدُ النِّسْيَانَ؟ وَالسَّرِيعُ الْحِفْظُ قَدْ يَكُونُ فِي دِمَاغِهِ مَرَّارَةً وَيُبْوَاسَةً؟ وَقَلَّ مَا تَرَاهُ يَنْزِلُ، وَإِنْ كَانَ فَلَا يَدُومُ ذَلِكَ بِهِ، فَإِنَّهَا مِنْ فَضَلَاتِ الدِّمَاغِ، وَكَذَلِكَ الْجَا حَظُّ الْعَيْنَيْنِ يُعْرَضُ عَنْ ذَلِكَ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالتَّعَرُّقِ، وَالْغَائِرُ الْعَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَرًا مَعَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ إِذَا قَالُوا: «هُوَ الْغَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، الْأَسِيلُ الْخَدَيْنِ، الْمُشْرِفُ الْحَاجِبَيْنِ».

كَذَلِكَ قَوْلِي، وَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ جَمَالٌ إِنْ خَشِنَتْ أَطْرَافُهُ وَامْتَلَأَتْ خَدَّاهُ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَمْدَحُ فِي الْإِنْسَانِ كِبَرَ رَأْسِهِ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ عَلَامَةُ السُّودُدِ، وَيَمْدَحُ الْغُلَامَ الْأَبْلَهَ الْعُقُولَ.

وقيل: الجمال في اللسان، ما كان ناطقاً بالصواب، ولا خير في التهور والإكثار بما لا يحتاج، ووصف بعض الشعراء رجلاً فيما رثى به، فقال:

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِيكِ
كَثِيرٍ تَحَلُّمٍ وَقَلِيلَ عَابِ
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَيٍّ
جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩- رجوع الكلام إلى التنجيم:

ومما وصّفناه من علم التنجيم، احتججت يوماً ببعض المنجمين أنهم على غير شيء، فقال: إِنْ كُنْتَ نَقَمْتَ بَأَنَّا نَزَعْنَا أَنَّ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ، لَا يَدْعِيهِ أَحَدٌ، غَيْرَ أَنَّا نَقُولُ بِأَنَّهَا مُصَرِّقَةٌ، أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ فِي النَّجْمِ السَّعِيدِ أَوْ النَّحِيسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لَذَلِكَ، ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَتَهَيَّأُ مِنْهَا.

«وليسَ منها شيءٌ إلاَّ مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذِ النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ وَاحِدٍ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَمَتَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوْلَةٌ أَوْ مِلَّةٌ، لَمْ تَدَلَّ النُّجُومُ عَلَى غَيْرِهَا، إِذِ الْحُكْمُ مِنَ لَدُنِ الْوَاحِدِ، فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِثُكَ بِهِ أَنَّهُ مَا مِنْ طَالِعِ الْقِرَانِ مِلَّةٍ وَمَوْلِدِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَاكَلَ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الْهَيْئَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ.

«وَأُخْرَى، أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ رُحَلِيُّونَ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ! أَلَا تَرَى اتِّخَاذَهُمُ السَّبْتَ عِيدًا، وَهُوَ لِرُحُلٍ، وَأَخْلَاقَهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ

زُحَلٌ مِنَ الْبُخْلِ، وَالْقَذَارَةُ، وَالخُبْثُ، وَالْمَكْرُ، وَالْخَدِيعَةُ؟ ثُمَّ الرُّومُ مِنْ بَعْدِهِمْ شَمْسِيُّونَ، لَا امْتِرَاءَ فِي ذَلِكَ! أَلَا تَرَى أَنَّ يَوْمَ الْأَحَدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيدًا، وَهُوَ يَوْمٌ شَمْسِيٌّ، وَطِبَائِعُهُمْ مُوَافِقَةٌ لِلشَّمْسِ، وَصُورُهُمْ فِيهَا: الْبَيَاضُ وَالْحُمْرَةُ وَالشُّقْرَةُ، وَالرَّهْبَانِيَّةُ فِي عِبَادِهِمْ لِعَقْمِ الشَّمْسِ؟ ثُمَّ الْمُسْلِمُونَ: أَلَيْسَ هُمْ زُهْرِيَّينَ؟ وَالزُّهْرَةُ دَالَّةٌ عَلَى الدِّينِ، وَالنِّظَافَةِ، وَالْمُرُوءَةِ، وَالضُّوءِ، وَالطَّهْرِ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَإِبَاحَةِ النِّكَاحِ، وَالْإِمَاءِ، وَالطَّيِّبِ وَالزَّيْنَةِ؟ ثُمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيدًا، وَهُوَ يَوْمُ الزُّهْرَةِ!.

«ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بُرُوجِ الْفَلَكَ، تَقُولُ: إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْعُرْسِ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ النِّكَاحَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ، وَهُوَ السَّابِعُ مِنْ أَشْهُرِ الْعَامِ الْمُؤَرَّخِ بِهِ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ، وَالثَّامِنُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الْمَوْتِ وَالْمَوَارِيثُ، وَشَهْرُ شَعْبَانَ الثَّامِنُ مِنَ الْأَشْهُرِ الَّذِي تُنْسَخُ فِيهِ الْأَجَالُ، وَالتَّاسِعُ مِنَ الْبُرُوجِ بَيْتُ الدِّينِ وَالسَّفَرِ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ، تَاسِعُ أَشْهُرِ الْعَامِ، وَجِبَ فِيهِ الصَّوْمِ وَمُحَافَظَةُ الشَّرْعِ، وَالْعَاشِرُ بَيْتُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ، وَاتَّخَذَ الْعَاشِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيدًا يَظْهَرُ فِيهِ بِهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ.

«وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج: ١) وَأَقْسَمَ ﴿بِالْخُنُسِ﴾ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُسِ (التكوير: ١٥، ١٦) وَهِيَ الْمَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ زُحَلَ هُوَ النِّجْمُ الثَّاقِبُ، لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضُوئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعِينَ مَرَّةً، وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ، غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ، فَإِنَّهُمَا^(١) أَصْغَرُ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَنَّ الشَّمْسَ أَعْظَمُ مِنَ الدُّنْيَا مِائَةً وَثَمَانِينَ ضِعْفًا، وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ مِنْهَا مُدَّةٌ يَقْطَعُ

فيها الفلك، ورُبَّةٌ هَيَّاها له بارئُهُ - عزَّ وجلَّ - وإنَّ العالمَ السفلى مُتَعَلِّقٌ بالعلوى، مؤثِّرٌ به بإذن ربِّه.

ومنهم من قال: لأيُّ شيء تُنسَبُ إلينا الزندقة؟ ولم تُنكر الخالق، وإنما تكلمنا في المخلوقات، فيُوصَفُ كلُّ مخلوقٍ بما يُذكره عِلْمُ الإنسان، كواصفِ رَجُلٍ أو شَجَرٍ أو جَبَلٍ!.

وذكرَ عن حكيم أنَّه رُئيَ بالمُصْحَفِ عن يمينه، والأسطرلاب عن شماله، فسُئِلَ ما الذي أوجبَ جَمْعَهُما^(١) لديه، فقال: «أتلو في المُصْحَفِ كلامَ الله، وأعتَبِرُ في الأسطرلاب خَلْقَ الله، وعلمَ الهَيْئَةِ عِبَادَةً!».

ولأنه لما نُصِّرَ على هذه المقالة، كان جوابي عنها: «كلُّ ما تقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّةِ بما احتَجَجْتُمُ به، غَيْرَ أنكم خالَفتُم القرآنَ في قولكم «يكون» و «لا يكون» والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥) فقالوا: «لَسْنَا نَقْطَعُ عن الأمرِ أَنَّهُ يكون، ولا نقولُ إِلَّا أَنَّهُ يَدُلُّ، ونأتى بحُجَّةٍ إِلَّا يَتِمُّ شَرْحُهَا اللَّهُمَّ! إذ قلنا: هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والكائن فيها، ومنا مَنْ يتحرى، فيعدل ولا يتكلم على شيء، وقولنا هذا كقول من رأى سَحَابًا ثَقَالًا فيقول: «هذه تدلُّ على الماء الكثير» هل قائلُ ذلك مُلْحَدٌ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاء.

وهذا أيضًا مما قدَّمنا ذكره صدرَ الكتاب أن كلَّ مفتون مُلَقِّنٌ حُجَّتَهُ، والله يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤) على أن الحقَّ عليه نورٌ لا يخفى، تقول العرب: «الحقُّ أبلج»، والباطلُ لَجَلَجٌ قال المأمون: «لا اغتَبِطُ بأيَّامِ السرور مُذْ عَلِمْتُ التَّجْهِيمَ، ولا استمريرتُ الطعامَ مُذْ عَلِمْتُ الطَّبَّ، ولا طابَ لى النومِ مُذْ عَلِمْتُ عِبَارَةَ الرُّوْيَا!».

(١) في المطبوع: «جَمْعَهُما».

٩٠- مسائل فلكية:

ويزعمون أنَّ الليل ظلُّ الأرض، ولا ضياء غير الشمس، فبإشراقها على الأرض عند طلوعها، كان النهار، ويدخلها تحت الأرض، رجع الظلُّ طالعا، فأظلمَ الليل.

وبعضهم من قرأ أنَّ الشمس تجري، لا مُستَقَرَّ لها، إذ يقولون: إنَّ الشمس لا تستَقِرُّ بمكان، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلاَّ أعظم من الذي تحلُّ فيه، ولا أعظم من الشمس إلاَّ الفلك، والفلك دَوَّارٌ.

وقالوا في الكسوف: إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلاَّ بالوقوف على صورة الهيئة، ولولا ذلك، لم يجد القول، وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذي حدَّ أمره وقتَ انجلائه. ومبلغ المنكسف منه، وإن الشمس في ذاتها لا يعرضها شيء غير أنَّ جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى قابلها، وكسوف القمر من مُقابلة الأرض.

ورعموا أنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس، وأنها أجرام شفافة تكتسى النور من النِّير الأعظم، فيبدو ضوؤها بغيبها، ويطمس عليها طلوعها، وهو قول الشاعر في ذلك:

لأنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ
إذا طلعت لم يبدُ مِنْهُنَّ كوكبٌ

٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب:

وقال أهل الطبيعة: إنَّ لا حيوان إلاَّ بالحرارة والرطوبة، أينما كان الماء والشمس تولد فيه الحيوان، وقد يكون من غير نسل، ونرى حيوانا يكون في جوف صخرة صماء مملئة، والله يخلق ما يشاء، قال تعالى:

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠، ٦١) وَذَكَرَ عَنْ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ رَأَى فِي الْمَنَامِ عَلَى حَالَةٍ حَسَنَةٍ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَوْرِهِ، فَقَالَ: «رَحِمَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ قُلْتُهَا: مَرَرْتُ يَوْمًا عَلَى زُرْعٍ، فَقُلْتُ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ، لَأَنْبَتَهُ فِي النَّارِ وَالْيَقَاقِ!» (أَي فِي الصَّحَارَى الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أكثر من معرفة الطبيعة: علاجٌ ضعيفٌ لا يرفع قدرًا أكثر من تقويم المزاج عند انحرافه، فعالجوا الأبدان بما أدركته، عقولهم، وجربوه بأعمارهم، وتركوه سلقًا في الأواخر، فكلُّ يُعَانِي عَلَى مَقْدَارِ تَجَرُّبَتِهِ... (١) وَلَا يُوَافِقُ الْقِرَاءَةَ حَظًّا حَسَنًا وَمَعْرِفَةً بِهَذَا الشَّانِ، فَقَدْ أَخْطَأَ وَتَكَلَّفَ، وَقَالُوا: إِنَّ الدَّوَاءَ الْمُسَهِّلَ لِلْجِسْمِ بِمَنْزِلَةِ الصَّابُونِ لِلثُّوبِ: يُنْقِيهِ وَيَحْلِقُهُ، فَاسْتَعْمَلَهُ فِي زَمَانِ الْخَرِيفِ أَوَّلَى فِي سُلْطَانِ السَّوْدَاءِ فِيهِ، كَمَا أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْفَصْدِ فِي زَمَانِ الرَّبِيعِ تَخْفِيفٌ لَا يَحْظَى مِنْ أَخْرَجَ فِيهِ الدَّمُ، وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الْأَغْذِيَةِ بِمَزَاجِ الْإِنْسَانِ: فَالْخُبْزُ النَّقِيُّ وَاللَّحْمُ الثَّنِيُّ وَالشَّرَابُ الْحَوْلِيُّ، فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَخْلِيطِ لَمْ يَزَلْ صَحِيحَ الْجِسْمِ، قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان في زمان المسيح - عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرَأُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ!» فقال: «وَأَنَا أَعَالِجُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ!» فَلَمَّا قِيلَ: «يُحْيِي الْمَوْتَى» لَمْ يُصَدِّقْ ذَلِكَ حَتَّى رَأَاهُ مُعَايِنَةً حَقًّا.

٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم:

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعِمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ بِسْمَاعٍ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مَنْ لَهُ لِسَانٌ وَآلَةٌ تُعِينُهُ، وَإِلَّا، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ يَعْرِضُ فِي دِمَاقٍ مَنْ يَدْعَى ذَلِكَ، فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاغِهِ أَمْرٌ مَا يَخِيلُ لَهُ بِفَسَادِهِ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ، فَيَهْدِي هَذَا نَائًا، ضَرْبًا مِنَ الرُّوحَانِيَةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدَةٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ: إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ، أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرَاةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، هَذَا لِعَمْرِى مَذْهَبٌ خُوفٌ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (النمل: ٣٩) وَقَوْلُهُ: ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: ٢٧) وَهَذَا ذَكِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ لَيْسَ عَلَى خَلْقَةِ الْإِنْسِ، كُلٌّ عَلَى جِبِلَّةٍ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ.

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَدْنِ، وَلَا سَبَّحَتْ، وَلَا اهْتَدَتْ لِمَا يُسَرَّتْ لَهُ، إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور: ٤١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: ٤٤) وَوَصَفَ السُّجُودَ النُّجُومَ وَالشَّجَرِ وَالْذُّوَابَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدُ، فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْنِ بُشِّرَا بِالثَّوَابِ، وَأُنْذِرَا بِالْعِقَابِ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ (الأنعام: ١٣٠).

فمن لا يؤمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون، فلا يؤمن بالملائكة، ويحتاج أن يكون قوله هذا نسقًا في كلِّ من ليس له لسانٌ وجوارحُ أنَّه لا يتكلَّم بجوارح الإنسان، فالملائكة لا توصفُ بيدٍ ولا لسان، وهُم المنزَّلون بالوحي على الأنبياء والمُخاطَبون لهم بالكتِّب والسُّنَّة: فلا يؤمن بالرسالة من يَمْذَهَبُ بهذا.

٩٢- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب:

وقالوا: إنَّ الجماع من أكبرِ أدويةِ السَّوداء لسرورِ تلك الساعة، ودُخولِ الحَمَّام، لما يعرض الإنسان من الانطراب فيه، من سرِّه أن تَقَرَّ عينُه حياته، فَلَيْتَمَنعُ ما وَجَدَ سهولةَ شهوته، ومَن اغْتَنَمَ ساعةَ لذَّته، فقد غَنِمَ^(١)، ومن أخرَّها، فقد عَدِمَ! فَإِنَّ الإنسانَ ابْنُ الآن!

وقالوا في الجلوس على المِياه والريَّاحين ممَّا يُسَلِّي العاشق ويتداوى من أحزانه به.

وأما أنا، فأقول: إنَّ ذلك يزيد في تذكَّاره، ونَقِصِمُ البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولعُ إلَّا بما اسْتَحْسَنَتْ، فكلُّ مُسْتَحْسَنٍ تَرَاهُ يُخْرِجُهَا إلى ذكرِ الأسنى في خاطِرِها، وكلُّ حَدِيثٍ إنما يسوقه إليه، وكلُّ ما زِيدَ تَذْكَارًا زاد شوقًا، فأعقبه سَهَرًا وَقَلَقًا، والشَّيْءُ لا يُعَانِي إِلَّا بضدِّه: فكيف يشغف بحسنٍ ويُسْلِيه حُسْنٌ؟ بل يُوقِظُه ويشغله! ألا تَرَى أنَّ المَكْرُوبَ يتَفَرَّجُ بالسُّرُورِ، والسُّرُورَ، يَضْمَحَلُّ بالكَدْرِ؟.

وليس لعاشقٍ مُرُزًا بمالٍ ولا أهلٍ، فيتسلَّى بما يُذهِبُ غُموه، بل هو من شأنه في لَذَّةِ حلاوتِها مشوبةٌ بحرارةٍ: وهو حُكْمُ الحلو كُلِّه في المُدَاقَعةِ،

(١) في المطبوع: «عنم» بالعين المهملة.

لا يكون إلاً مائلاً إلى الحرارة؟ وكذلك في المشهيات^(١): كلُّ ما تَمَّتْ حرارته، طاب ريحه.

وإذا قاس حالَ أزميته التي كانت تَسُرُّه على ضروب من حالات الصبوة، لم يجد فيها مدَّةً كانت عنده أفضلَ، وأبلغَ في السرور، وأهشَّ للنفس واليق بالحصِّ وأذكى للقلب، وأصفى مشرباً، وأهنأَ طعاماً، من تلك المدَّة، وإن كان فيها بعضُ جوى، فإنه «لا بدَّ بعد الشَّهْد من إِبْرِ النَّحْلِ» ودواؤه، ما لا يَرْضاه، ولا يختاره بدلاً مما هو فيه، إن يشغله من ذلك خطبٌ كبيرٌ، ينسى به ما كان عليه، والذي هو بسبيله عنده أولى.

٩٤- تأملات نظرية وأمثلة:

يضرِبها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا: والصبوة تُحدث للإنسان هيجاناً وهموماً: كالمُهِتَمِّ بالنظر في ماله، أو المُشَغَّبِ بِمُحاوَلَةِ ما يُصلِحُه، فليس كلُّ شغب ضاراً، بل يؤلم منه مكابدة الأعداء ومقاساة طلب العيش، الذي، إن فتر عنه شقياً، لا طلب الزيادة في الرزق، فإن ذلك يَسْعَى كالبَطْرِ الذي هو بالخيار في الكدِّ والراحة.

والنفسُ تَوَاقُّ متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ، تاقَتْ إلى ما فوقها، فالعَاقِلُ يَرَى أَنَّ كُلَّ كَدٍّ وَطَلَبٍ دُونَ السَّعْيِ فِي طَلَبِ ما لا بُدَّ مِنْهُ مِنْ قِوَامِ العِيشِ فَخْرٌ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ، ولذلك هو الإنسانُ عن كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ، إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ: طَعَامٌ يَسُدُّ جُوعَهُ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٌ يَكْنُهُ مِنَ الشَّمْسِ، وَلَوْ أَنَّ لَهُ الدُّنْيَا أَجْمَعُ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا زَائِداً إِلَّا حِطُّ العَيْنِ الَّذِي يَسْتَوِي بِهِ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاظِرِينَ، فَسَلِمَ مِنْ تَبْعَاتِهِ^(٢)، وَتَوَرَّطَ هُوَ فِي حِسَابِهِ وَأَوْزَارِهِ،

(١) في المطبوع: «المُشْتَهَات».

(٢) في المطبوع: «تبعاته».

وما كان إلى انقطاع ونفاد، فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فيه، لو آلت حاله إلى السلامة بعد ذهابه، لا عليه ولا له، فكيف، وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحساب والجنة أو النار؟ وقال المسيح - عليه السلام -: «الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ: فاعبروها ولا تعمروها!».

وعلى أنه لا يوجد أحدٌ يزهد في حالٍ كلِّ الزهادة، حتى يبلغ منه أمله أو بعضه، فإن الزهادة الطبيعية إنما تكون فيما تكره النفس، ولا بُدَّ من ميلها إلى ما فيه أدنى سرور، والله يقول في الإنسان، لعلمه به: ﴿وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (المائدات: ٧) فكان الشيء، إذا أدرك، انصرفت عنه النفس لبلوغ نهمتها، ومتى تمتع عليها، كانت به أشدَّ كلفًا.

ولقد بَلَوْتُ من نفسي بعضَ ذلك، إذ الطبعُ البشريُّ واحدٌ، لا يكاد يَخْتَلِفُ إلَّا في الأقلِّ، ولذلك أمرَ الإنسانُ أن يحبَّ لأبناءِ جنسه ما يحبُّ لنفسه، حصًّا^(١) على العدل والإنصاف.

وأجدني في كثرة المال، بعدَ تملُّكي عليه مع ذهابه، أرهدَ مني فيه قبل اكتسابه، مع شُفوف الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن، وكذلك شأنِي كلُّه في كلِّ ما أدركته قبلُ من الأمرِ والنهي، واكتسابِ الذخائر، والتأنقِ في المطاعم والملابس والمراكب والمباني، وما شاكل من الأحوال الرفيعة التي نشأنا عليها، حتى إنه لم يبقَ من ذلك ما تتمناه النفس، وما لا تظنه، إلَّا وقد بلغنا منه الغاية، وتجاوزنا فيه النهاية، ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكًا، فتطول عليه الحسرة، ويعدُّ من جملة الأحلام! بل، تمدى برهة من عشرين عامًا، وما كان قبله يكاد أن يؤاخره، إذ ربينا في حجره.

ووجدتني، بعد فقد هذا كلِّه، على الوكْدِ أحرصَ مني على ما سواه من

(١) في المطبوع: «حظًا».

كُلُّ مَا وَصَفْنَا، لَعْدَمِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ، وَقَلْتُ فِي نَفْسِي: «الْغَايَةُ الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ، قَدْ أَدْرَكْنَاهَا، وَشُهِرْنَا بِهَا فِي الْآفَاقِ، وَلَا بُدَّ مِنْ فَقْدِهَا، بَاكِراً كَانَ أَوْ مُؤَخَّراً، بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ! فَتَحَسِبْ هَذِهِ الْعَشْرِينَ عَاماً هِيَ مِائَةُ عَامٍ، إِذَا تَمَّتْ، سَوَاءٌ، وَكَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ! وَنَحْنُ الْآنَ جُدْرَاءُ بِالنَّظَرِ فِيمَا نَبْتَغِيهِ، وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ مَا شَاءَ!».

وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَّاثٌ: «هَلْ رَرَعْتُمْ؟» فَقَالَ: حَرَكْنَا، وَاللَّهِ الزَّارِعُ! وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْمُزَارِعِينَ، فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَاتَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَبِرَكَتِهِ.

٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده:

وَكَانَ تَدْبِيرُنَا هَذَا إِلَهَامًا لِيَنْفِذَ الْقَدَرُ، بِكَوْنٍ مِنْ نَشَأَ مِنَ الْوَلَدِ، لَمْ يَتَبَعْدَ وَقْتَهُ، وَلَا كَانَ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ.

(وَذَكَرَ الْفَلَاسِفَةُ أَنَّ الْوَحْيَ يَتَجَزَأُ عَلَى ثَلَاثٍ: كَلَامٌ، وَإِلَهَامٌ، وَمَنَامٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل: ٦٨) وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (القصاص: ٨) إِنَّمَا كَانَ وَحْيَ إِلَهَامٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ فِي بَعْضِ أَقْسَامِهِ: «لَا! وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ!» فَإِنَّهَا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ لِيَنْفِذَ فِيهِ أَحْكَامَهُ وَتَجْرَىٰ عَلَيْهَا أَقْدَارُهُ).

فَمَا بَقِيَ لَنَا مِنَ الْأَمَالِ غَيْرَ مَالٍ حَلَالٍ لِلْمَعَاشِ، يَغْنَىٰ عَنِ السُّؤَالِ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ لِلْمَعَادِ، يُنْجِي مِنَ الْعِقَابِ وَيُوجِبُ الثَّوَابَ.

وَقَدْ كَانَ سُقْرَاطُ الْحَكِيمِ يَكْرَهُ الْوِطَاءَ مَدَّةَ عُمُرِهِ، يَعْتَقِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ مُهَرِّمٌ لِلْجَسَمِ وَمُسْرِعٌ إِلَى الْفَنَاءِ، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مُقْتَبِسٌ مِنْ حَيَاتِهِ، فَمَنْ

شاءَ، فَلْيُقَلِّلْ، ومن شاءَ فَلْيَكْثِرْ! ولهذا أرجح الجاحِظُ في «كتاب الحيوان» بأنَّ الخصيَّ إنّما طال عُمره من أنّه لا يُجامع.

وأما أنا فاقول^(١): إنّ تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعِهِ إلى [الحيوانية]^(٢) أشدُّ استِفْراغًا، وأذهبُ لجَوْهرِيّته، وأقطع لعُروقه من أن لو جامعَ كلَّ يوم في عُمره عشر مرّات، لأنَّ المُجامعَ مُخْرِجٌ للفضول، وهذا خُرْجٌ منه الجَوْهرُ، وفُرْعَتُ عروقه، وَلُيْنَتُ لحمه، وَأَضْعَفَتُ عَصْبُهُ، وَأَرْخَتُ جلدَتَهُ.

ولمّا كَبِرَ سِنَّ سُقراط، وعَلِمَ أنّه ليسَ بعدَ الكِبَرِ إلّا الموت، جامعَ مرّةً من عُمرِهِ، آخرَ زمانِهِ، وتَأَوَّلَ في ذلك إتمامًا لحكمة الباري - عزَّ وجلَّ - وقال: «لم تكن حِكْمَةُ النسل إلّا بهذا الفعل، وإنّ أنا مُتُّ تارِكًا له أصلًا، كُنْتُ كالساخِطِ أو المُعْنَتِ لِمَا رَتَّبَهُ الرَّبُّ، وَعَسَى بِذلك نستوجب عقابه!» ثم قال، إذا حضره الموت: «ما أَظُنُّ عِيًّا على إلّا مُجامعة تلك الساعة!».

وكان من نعمة الله علىّ إن رزقني بِكَرٍّ أولادى ابنة، لم يَزَلْ قَبِيلُنَا كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بها، وَيَكْرَهُ أن يكون بِكَرٍّ ابْنًا ذَكَرًا، وقد رأينا في سَيْفِ الدوله أبنينا - رحمه الله - أن لم تتمَّ له فرحتُهُ بِذلك، على أنّ هذا ليس على العموم، وإنّما ذَكَرْنَاهُ للتفاوُل، إذ قال نَبِيُّنا - ﷺ -: «تَفَاءَلُوا ولا تَطَيَّرُوا!» فَنَحْنُ قد تَفَاءَلْنَا، لا سِيَّما بما شهر عند أهالينا وقالوه قديمًا، ولو كان ضِدُّه، ما ذَكَرْنَاهُ، للنهاي عنه.

ثم رزقنا بعد هذا ابْنَيْنِ، لم نُبَشِّرْ بالاثْنين، كى لا يجتمع علينا حزنُ ذلك مع ما نَحْنُ في سبيله، لُطْفًا من الوهَّابِ وإِنعامًا وإحسانًا، فتَعَدَّدُ نِعَمُ الله

(١) في المطبوع: «أقول».

(٢) مكان ما بين الحاصرتين بياض بالأصل.

شُكْرُهَا، والإعلانُ عى وَجْهِ الشكر والتَقْوى، لا على الْفَخْرِ والخِيْلَاءِ، من أَوْجَبَ ما يأخذ به الإنسانُ نَفْسَهُ، قال النَبِيُّ - ﷺ : «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، وَلَا فَخْرَ!».

٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرأله - راضين عنه أو ساخطين عليه:

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهْتِبَالِنَا إِلَى وَضْعِ هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ لَعَمْرَى بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ الَّذِي يُقْبَى ذِكْرُ أَبِيهِ فِي الْعَالَمِ، لِنُبَيِّنَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى الْجَاهِلِ مِنْ مَقَالَةٍ سَوَاءٍ [فِي دَوْلَةٍ] زَعَمَ الْحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا، وَلَنْ نَعْدَمَ مَعَ هَذَا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِنَا، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا، وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هَذَا الْكِتَابَ لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْحَقِّ، الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ فِينَا، الْوَادِّينَ الْخَيْرَ لَنَا، وَلَا يَزِيدُ الْبُغَاةَ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً.

فَنَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَذَوِي الْأَلْبَابِ: «إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِمَادُنَا، وَإِيَّاكُمْ خَاطِبُنَا، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا! فَلَا عَمِيَ بِكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحْيِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ، وَلَا شَتَانٌ لَتَرَةٍ سَلَفَتْ تُحَرِّفُكُمْ إِلَى نَفَثَاتِ الْحَاقِدِينَ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ إِخْوَانًا، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا!».

وَنَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَرَضَ جَهْلًا أَوْ حِقْدًا: «اخْسَأْ بِجَهْلِكَ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى اخْتِيَارِكَ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - ﷺ - فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الاعراف: ١٩٩) وَهَلْ تَنْقِمُكَ، أَيُّهَا الطَّاعِنُ لَنَا، أَنْ وَرَثَتْنَا مُلْكًا عَنْ آبَاءِ كِرَامٍ، يَوْمٌ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ عُمْرِكَ كُلِّهِ؟ إِذْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ إِنَّهُ مِنْ عَاشٍ ذَا فَضْلٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ، فَهُوَ، وَإِنْ قَصُرَ عُمْرُهُ، طَوِيلُ الْعُمُرِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ فِي

طاعة لم تُوصَفَ مقدماً، بحمد الله، بجورٍ ولا طغيان، ولا سَفَكُنَا دَمًا، ولا غَصَبُنَا مَالًا، وكانت مُدَّتُنَا فيه نحو من عشرين عامًا خَيْرًا من سِنِينَ، إذ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ من ألف شهرٍ، وتَمَامُ المَدَدِ على قديم الدهر عادةٌ لا تُسْتَغْرَبُ لَنَا خاصةً، ولا بُدٌّ من الفراق! فلله الحمدُ إذ لم نفقدها بفَقْدِ عقولنا ولا أدياننا، ولا تَمَّتْ بِنَفَادِ أَعْمَارِنَا: فَيَوْمٌ من عُمُرِ الْإِنْسَانِ يذكر الله فيه خَيْرٌ من تَمَامِ عَمَلِهِ، ومَيِّتَةٌ على بلاءٍ وتذكّارٍ خَيْرٌ من مَيِّتَةٍ على فِتْنَةٍ غَفْلَةٍ.

٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطائه الخاصة
ثم أَضْرَبْتُ عن وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ فَعَلْنَاهُ، وَحَزَمْتُ اسْتَشْعَرْنَاهُ، وَخِدْمَةٌ
لِلدَّوْلَةِ تَكَلَّفْنَاهَا.

وطلَّبتُ بُنْيَاتَ الطريق، وتَتَبَّعتُ ما لا عارَ فيه على الملك، ولا نَقْصانَ
فى الممْلَكَةِ، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كى تعقب نَشَاطًا،
وَعَمَّا دُفِعْنَا إليه تَسْلِيَةً، فقد قالت الحكماءُ: «تَرَكُ اللَّذَاتِ يُعْقِبُ الْبَرْدَةَ،
ويؤثر فى الجِلْدِ أدواءٌ مُنْكَرَةٌ، وقيل: إذا لم يكن للمرء على البقاء مَقْدَرَةٌ،
فَلْيَتَمَتَّعْ، فإن تَرَكَ ذلكَ للنفس.

فَهَجَّتْنَا بِلَفْظِكَ، وأَخْرَجَتْهَا من حِيزِ الْهَزْلِ إلى الجَدِّ، وَكُنْتَ كَجَارِ
سَبَبَةٍ: إن رأى حسنةً، كَتَمَهَا، وإن رأى سيئةً، أذاعَهَا، فَطَفَفْتَ وَأَرَبَيْتَ إن
افْتَرَيْتَ، وما أَدْعَتْ هذا، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لم أَكُنْ مخلوعَ العذار، ولا أَخْلَدْتُ
إلى راحةٍ توجب الغفلة، كالذى صَنَعَ من كان قَبْلَنَا من الملوك، وَتَعَفَّفْنَا عن
الدِّمَاءِ والأَمْوَالِ والحُرْمِ!.

ولم يَبْقَ لك ما تقول: «إِنَّمَا كَانَ صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ حَرِيصًا على جَمْعِ

المال، مُحِبًّا فِي الْحِسان، يُنادِم الصَّبِيان! [وإذا] لَمْ تُحَسِّنِ الرُّويَّةَ، وَلَا ظَنَّنَتْهُ فِكْرًا.

أَلَسْتَ تَعْلَمُ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَتَفَعَّلُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ أَوْقَارًا؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُصُ عَلَى صِيَانَةِ عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عَدُوِّهِ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقٍّ أَوْ أَعْطَى فِي غَيْرِ مَا يَجِبُ؟ فَقُلْ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلٌ، أَوْ رَفُضَ جُنْدًا، وَدَخَلَتْ دَاخِلَةٌ مِنَ التَّقْصِيرِ أَوْ الْمَنَعِ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا بِغَيْرِ حَقٍّ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ، وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصَلَةِ جَزَلَةٍ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ] بِكُسُوفِ سَنِيَّةٍ: أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ، إِذِ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَدْبَارِ.

وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيانِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ، الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا، فَمَا لِلْعُقَارِ وَالرِّيَّارِ؟ لَيْسَ هَذَا مَجْلِسَ حُكْمٍ: فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ، وَلَا وَضِعَ لَتَدْيِيرِ رَأْيٍ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَلَا مِيدَانَ حَرْبٍ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْفُرْسَانِ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ: مِنْ اسْتِعْمَالٍ فِيهِ غَيْرُ شَاكِلَتِهِ، فَقَدْ جَهَلَ، وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ مَعَهُمْ فِي جِدٍّ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ؟.

وَالْمُسْتَعْمِلُونَ لَخِدْمَةِ الدَّوْلَةِ مَشْهُورُونَ، مِمَّنْ لَهُ حَنَكَةٌ وَدَرِيَّةٌ: وَالْخَدِيمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا: كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ الْبَارِحَةَ، إِذِ السُّكْرُ عَوْرَةٌ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَّةِ عَلَيْهِ فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَاسَ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاحُ وَالْعَرَبِيدَةُ؟ ثُمَّ تَطْلُبُهُ لَخِدْمَتِكَ، فَتَجِدُهُ عَشُولًا عَمَّا يَصْلَحُكَ مَشْغُولًا.

وَيَغْيِرُ هَذَا كُلَّهُ، فَإِنَّ الدُّوَلَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْغُلَمَانُ وَأَبْنَاءُ الصَّنَائِعِ صِغَارًا وَكِبَارًا، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالًا، وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَعْوَانًا، وَيتَصَرَّفُ الصَّغِيرُ السِّنِّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسِنَّ أَنْ يَتَوَلَّاهُ، وَلِكُلِّ دَرَجَتُهُ وَرُتْبَتُهُ، وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّرْتِيبِ وَالتَّجَمُّلِ بِهِ، وَانْتِخَابِ الْحِسَانِ مِنْهُمْ تَلِيقُ بِهِمُ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالْمَرَاقِبُ الْفَارِهَةُ؟ وَأَخُوكَ مِنْ وَأَتَاكَ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَيْءٍ يَتَعَبَّدُ [خِدْمَتِكَ مِنْ] حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ، وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ... (١) إِنْ يَقُلْ هَذَا، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْنَاهُ عَلَى بِلْدَةٍ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ؟ إِلَّا مَا وَصَفْنَاهُ، لَا أَدْرِي غَيْرَهُ وَالْأ... فَتَكُونُ مُجْرَحًا، وَلَا إِشَارَتَكَ عَاضِدًا، أَوْ تَكُونُ قَازِفًا مُسْتَوْجِبًا!.

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ، وَبَطَاعَتَهُ عَامِلِينَ! إِنَّهُ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ، وَلَا إِلَهَ حَقٌّ حَاشَاهُ!.

كَمَلِ الْكِتَابَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

المدح الأول

منتخبات عن «كتاب البيان المغرب»^(١)
لابن عذارى المراكشي
عن دولة الأمير عبد الله بن بلكين بن زيري

(١) في هامش المطبوع: عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن.

obeikandi.com

(١)

وفى سنة ٤٦٥، كانت وفاة باديس بن حَبُوس على قول المُرَادَى،
والأكثرون على أن وفاته كانت ٤٦٩، هكذا ذكر ابن القَطَّان فى «نَظْم
الجُمَان».

ذكر بيعة حفيد باديس بن حبوس

هو عبد الله بن بُلُكَيْن الهالك بتدبير اليهودى المتقدم ذكره، وتسمّى
بالمُظْفَر بالله، الناصر لدين الله، وكان غلامًا لم يبلغ الحلم، فاتَّفَق على
مبايعته وِزْرَاءُ جَدِّه ووجوه صِنْهَاجَة، وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف بِسِمَاجَة،
فاستقلَّ بحاله ورياسته، وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين، وكان قد أعطاه
فى حياته مدينة جَيَّان، فكان ينهمك فى شرب من الخمر، ويحدثُ أحداثًا
قبيحة من القتل، وكانت له كلبه سمَّاها لُبُونَة، فمن أحدث له حادثًا أو
استوجب عقوبةً، أمر به، فرمى إلى الكلبة، فأكلته، فتفرَّق الناسُ عنه
وكرهوه، واتَّفَقوا على تقديم عبد الله بن بُلُكَيْن المذكور فقام بأمره سِمَاجَة
خير قيام.

وطمع ابن عَبَّاد فى رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس، فحشد من كان
عنده، واستكثر من الجند، وقدم إلى إغَرْنَاطَة، فبرز عليها، وبنى بقربها
حِصْنًا على سِتَّة فراسخ منها، وملاه بالرُّمَاء والرَّجَالَة، وترك الخيل فيه مع
قائده، وأمرهم بالضرب على إغَرْنَاطَة وجِهَاتِهَا، فكان ذلك.

ثم لم يزل سِمَاجَة يخدم الصَّيِّىَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال، فأراد الانفراد

بحاله، فنفى عن نفسه سِمَاجَةً، فلاحق بِالْمَرِيَّةِ بمال كثير وحالة جسيمة، ولم يزل بها إلى أن هلك، وبقي عبد الله بن بلكين بغرناطة، وسيأتى خبره فى دولة المرابطين إن شاء الله تعالى.

(٢)

وفى سنة ٤٨٢، طرد عبدُ الله بن بلكين من غرناطة مُقَاتِلَ بن عَطِيَّة البرزالى^(١)، وكان فارسَ الإسلام، وهو مع إخوته فى ثلاثمائة فارس، فكان ذلك ابتداءً نحوس عبد الله بن بلكين.

وفىها، قام مؤمِّل، مولى باديس بن حبوس، فى قَصَبَةِ لَوْشَة، على حفيد مولاه بدعوة لَمْتُونَة، فأخذه عبدُ الله وسجنه.

.....
فأول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين صاحبُ إغرناطة عبدُ الله ابن بلكين، كما ذكرنا، فنظر فى اختزان الأقوات، وألحق الرِّمَاءَ والرجال، وأعلى الأبراج، وبنى الأسوار، ووصل بعضها ببعض، وأقام عليها الدِّيدَبَانَات، ونصب الرِّعَادَات، وملأ بيوت السلاح، وجدَّ فى ضرب السَّهَام، وبذل فى ذلك جهده، وإذا نفدت هذه، لم تغن العُدَّة، ونقل المال والذخيرة، وخرَّج المتاع والآنية إلى قِصْبَةِ المُنْكَبِّ لكونها فى غاية المنعة وعلى ضُمَّة البحر، ولم يستأصل ذلك لكثرتة، وهدم حصونًا، وتوهم عليه القيام منها، ومن مأمَنه يؤتى الحذر.

وعمد على مال كثير، وثياب نفيسة، وتُحَفَ جليلة، وأعلاق رفيعة، فوجه بها إلى الإذفونش، وكتب إليه متطرحًا عليه، مستجيرًا به، وأعلمه أنَّ

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الزناتى».

البلد بلدُهُ، وأنه فيه فائدة، فاهتزَّ لذلك إذفونش، وقبل المال والهدايا،
وأقسم بجميع إيمانه ومعتقد ملته أن يشدَّ اليد عليه في ملكه، ولا يتركه
لضيم ولا هزيمة، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره، وراجعه
بمثل ذلك من قوله، فقويت نفسُ حفيد باديس بذلك.

وفى ذلك يقول السُّمَّارِيُّ:

صاحبُ غَرْنَاطَةِ سَفِيهِه
وأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صانعُ إِذْ فُونشُ والنصارى
فانظُرْ إلى رأيه الديبر
وشاد بنيانَه خِلافًا
لِطاعةِ الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهًا
كأنَّه دودة الحرير
دَعَّوهُ يبنى فسَوفَ يدرى
إذا أتت قُدرة القدير

واتَّصلت أبنائُهُ بأمير المسلمين على حقيقتها، فاشتدَّ غضبُهُ، واستزاد
جزعه.

وكان أبو جعفر القُلَيْعِيُّ من أهل إغرناطة فريد عصره في الخير والعلم
والتلاوة، والمُشار إليه...

obeikandi.com

المسحوق الثاني

منتخبات عن كتاب:

«الإحاطة في تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب السلماي

obeikandi.com

(١)

ترجمة عبد الله بن بلكين^(١)

عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي أمير غرناطة.

أوليته: قد مرّ ذلك في اسم جدّه ما فيه كفاية.

حاله: لقّبهُ المظفر بالله، الناصر لدين الله، ولى بعد جدّه الحاجب المظفر بالله في شوال سنة ٤٦٥ وصحبه سِمَاجَة الصنهاجي تسع سنين. قال الغافقي: وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والمعرفة، شاعراً جيّداً الشعر، مطبوعه، حسن الخط، كانت بغرناطة ربعة مُصَنَّف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان.

ووصفه ابن الصّيرفي، فقال: كان جباناً، مغمّد السيف، قلقاً، لا يثبت على الظهر، عزّهة، لا أرب له في النساء، هيّابة، مفرط الجزع، يخلد إلى الراحة، ويستوزر الأغمار.

خلعه: قال: وفي عام ٤٨٣، تحرّك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لخلع رؤساء الأندلس، فأجاز البحر ويمّم قُرطُبة، وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يغيظه ويحقده، حسبما تقدّم في اسم مؤمّل مولى باديس وقدّم إلى غرناطة أربع محلات، فنزلت بمقربة منها، ولم تمتد يد إلى شيء بوجه، فسرّ الناس واستبشروا، وأمنت البادية، وتسايل أهل الحاضرة

إلى القرى، وأسرع حفيد باديس فى المال، والحق السوقة والحاقة^(١)، واستكثر من اللفي، وألح بالكتب على إذفونش بما يطمعه.

وتحقق يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدمه، فتحرك، وفى ليلة الأحد ثلاث عشرة خلّت من رجب، اجتمع إلى حفيد باديس صناعه، فخوفه من عاقبة التربص، وحملوه على الخروج إليه، فركب، وركبت أمه، وخرجا، وتركوا القصر على حاله، ولقى أمير المسلمين على فرسخين من المدينة، فترجل وسأله العفو، فعفا عنه ووقف عليه، وأمره بالركوب، فركب وأقبل حتى نزل بالمشايخ^(٢) من خارج الحضرة، واضطربت المحلات، وأمر مؤملاً بثفاف القصر، فتولّى ذلك.

وخرج الجم من أهل المدينة، فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فقبلهم وأنسهم وسكن جانبهم، فاطمأنوا، وسهل مؤمل إليه دخول الأعيان، فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج، إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع، واستقصى ما كان بالقصر، فظهر على ما يحول الناظر، وروع خاطر، من الأعلاق والذخيرة والحلى، ونفيس الجوهر، وأحجار الياقوت، وقصب الزمرد، وآنية الذهب والفضة، وأطباق البلور المحكم، والجرجانيات، والعراقيات، والثياب الرفيعة، والأنماط، والكلل، والستائر، وأوطئة الديباج، ممّا كان فى ادّخار باديس واكتسابه، وأقبلت دواب الظهر من المنكب بأحمال السبيك والمسبوك، واختلفت أم عبد الله

(١) الحاقة: أغنى السفلة وأهل الشر، ومفردتها (الحاك).

(٢) فى المطبوع «بالمشيخة» والمثبت من الإحاطة ٣/ ٣٨٠، وبهامشها: «هو، كما يبدو من ضواحي غرناطة الإسلامية يصعب اليوم تحديد موقعه.

لاستخراج ما أودع بطن الأرض، حتى لم يبق إلا الخرنبي والثقل والسقط، وزع ذلك الأمير على قواده، ولم يستأثر منه بشيء.

قال: ورغب إليه مؤمل في دخول القصر، فركب إليه، وكثر استحسانه إياه، وأمر بحفظه وتفقد أوضاعه وأفنيته.

ونقل عبد الله إلى مراكش، وسنه يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر، فاستقر بها هو وأخوه تميم، وحلّ اعتقالهما، ورقّعه عنهما، وأجروا المرتب والمساهمة عليهما، وأحسن عبد الله أداء الطاعة، مع لين الكلمة، فقضيت مآربه، وأسعفت رغباته، وخفّ على الدولة، فاستراح واستريح معه، ورزق الوكد في الخمول، فعاش له ابنان، وبنت جمع لهم المال، فلما توفي ترك لهم مالا جماً.

مولده: ولد عبد الله سنة ٤٤٧.

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطية^(١)

مقاتل بن عطية البرزالي، يكنى أبا حرب، قال فيه أبو القاسم الغافقي: من أهل غرناطة، ويلقب بذي الوزارتين، ويعرف بالريه لحمرة كانت في وجهه.

حاله: كان من الفرسان الشجعان، لا يصطلي نباره، وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال، وولاه الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس مدينة السيّانة، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقها، وكان عبد الله

يحرره، وعندما تحقّق حركة اللمتونيين إليه، صرفه عن جهته، فقل لذلك قاصره، وأسرع ذهاب أمره:

شجاعته: قال: وحضر مقاتل مع عبد الله بن بلكين أمير غرناطة وقيعة النييل في صدر سنة ٤٧٨، فأبلى فيها بلاءً عظيمًا، وجرح وجهه وخرق درعه بالطعن والضرب، وذكر من حضرها ونجا منها، قال: كنتُ قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر، وحملت الترس ولم أعلم به، وحملني الله إلى طريق منجاة، فركبتها مرة أقعُ ومرة أقوم، فأدركتُ فارسًا على فرس أدهم، ورمحه على عاتقه، ودرقته على فخذه، ودرعه مهتكةً بالطعن، وبه جرحٌ في وجهه يشعب دمًا تحت مغفره، وهو مع ذلك ينهض على رسله، فرجعتُ إلى نفسي، فوجدتُ ثقلًا، فتذكّرتُ الترس، فأخرجتُ حمالته عن عاتقي وألقيته عنّي، فوجدتُ خفةً وعدتُ إلى العدو، فصاح ذلك الفارس: خذِ الترس! قلتُ: «لا حاجة لي به!» فقال: «خذهُ!» فتركته ووليتُ مسرعًا، فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحه بين كتفيّ وقال: «خذِ الترس، وإلاّ أخرجتُه بين كتفيك في صدرك!» فرأيتُ الموت الذي فرّرتُ منه، ورجعتُ إلى الترس، فأخذته، وأنا أدعو عليه، وأسرعْتُ عدوًا، فقال لي: «على ما كنتُ فليكن عدوك!» فاستعذتُ وقلتُ: «ما بعثه الله إلاّ لهلاكى!» وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به، فوقع في نفسه أنه يسرع الجري فيسلم وأقتل، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه، عطف عليه كالعقاب وطعنه ووطره، وتخلّص الرمح منه، ثمّ حمل على آخر، فطعنه ومال على الثالث، فانهزم منه، فرجع إلى، وقد هبتُ من فعله، ورشاش دم الجرح يتطاير من قناع المغفر لشدة نفسه، وقال لي: «يا فاعل! يا صانع! أتلقى الرمح، ومعك مقاتلُ الرية؟».

(٣)

ترجمة مؤمل^(١)

مؤمل، مولى باديس بن حبوس.

حالهُ ومَحْتَتُهُ: قال ابن الصَّيرَفِي وقد ذكر عبدَ الله بن بُلْكَيْن حفيدَ باديس، واستشارته في أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى خلعه: وكان في الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدّه اسمه مؤملٌ، وله سنٌّ، وعنده دهاءٌ وفطنةٌ ورأى ونظرٌ.

قال في موضع آخر: ولم يكن في وزراء مملكته وأخبار^(٢) دولته أصيلُ الرأى جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خيثمة من كتبه، ومؤملٌ من عبيد جدّه، وجعفر من فتيانه.

رجع، قال: فالطف به مؤملٌ في القول، وأعلمه برفق وحسنِ أدبٍ أن ذلك غير صواب، وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين، إذا قَرُبَ، والتطارح عليه، فإنه لا يمكنه مدافعتة ولا يطاق حربه، والاستجداء^(٣) له أحمد عاقبة وأيمن مغبة، وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السن والحكمة، ودافع في صدر رأيه الغلمة الأغمار، فاستشاط غيظًا على مؤمل ومن نحا نحوه، وهم بهم، فخرجوا، وقد سل^(٤) بهم فرقًا منه، فلما جنَّهم الليل، فروا إلى لوشة، وبها من أبناء عبيد باديس قائلوها، فملكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

(١) الإحاطة ٣ / ٣٣١. (٢) في المطبوع: «وأحياء» والمثبت من الإحاطة التي ينقل منها.

(٣) في المطبوع: «والاستخذاء» والمثبت من الإحاطة.

(٤) تحرف في المطبوع إلى: «وقد سل» وصوابه من الإحاطة.

وبادر مؤمّل بخطاب يوسف المذكور، وقد كان سفر إليه عن سلطانه، فأعجبه عقلاً ونبلاً، فاهتزّ إليه، وكان أقوى الأسباب على حركته، وبادر حفيد باديس لأمره، فأشخص الجيش لنظره صهره، فتغلب عليهم، وسبق مؤمّل ومن كان معه شراً سوق في الحديد، قد أركبوا على دواب هجن، وكشفت رؤوسهم، وأردف وراء كل رجل من يصفعه، وتقدّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة، وتلفّ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله: «إن قتلهم الآن، أطفأت غضبك وأذهبت مالك! فاستخرج المال، وأنت من وراء الانتقام!» فتقفّهم، وأطمعوا في أنفسهم ريثما شغله الهول، وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلّ اعتقالهم، فلم تسعّه مخالفته فأطلقهم، ولما ملك غرناطة على تفتية^(١) تلك الحال، قدّم مؤملاً على مُستخلصه^(٢)، وجعل بيده مفاتيح قصره، فنال ما شاء من مال وحظوة، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة، ونُسبت إليه بغرناطة آثار، منها السقاية بباب الفخّارين، والحوّز المعروف بحوّز مؤمّل^(٣)، أدركتها، وهى بحالها.

وفسّاته: قال ابن الصّيرفى: وفى ربيع الأوّل من هذا العام، وهو عام ٤٩٢، توفّى بغرناطة مؤمّل، مولى باديس بن حبّوس، عبد أمير المسلمين وجابى مُستخلصه، وكان له دهاءٌ وصبرٌ، ولم يكن بقارئ ولا كاتب، رزقه الله عند أمير المسلمين أيام حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً، ولما أشرف على المنية، أحضر ما كان عنده من مال المُستخلص، وأشهد الحاضرين

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «تفتية» وصوابه من الإحاطة.

(٢) المستخلص هنا يقصد به الاملاك والاموال الاميرية (الإحاطة ٣ / ٣٣٣ حاشية ١).

(٣) حوز مؤمّل: اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته (الإحاطة ٣ / ٣٣٣ حاشية ٢) وتحرفت العبارة فى المطبوع إلى: «والحوّز المعروفة بحوّز مؤمّل».

على دفعه إلى من استوثقه على حملة، ثم أبرأ جميع عمّاله وكتّابه، وأنفذ رجلاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملة من مال نفسه، يُريه أن ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيام خدمته، وأن بيت المال أولى به، ورغب في ستر أهله ووكدّه، فلما وصل ذلك إليه، أظهر الأسف عليه، وأمضى تقديم صنيعته.

ثم ذكر ما كشف البحث عنه من محتججه، وشقاء من خلفه بسببه، وعدّد مالا وذخيرة.

obeikandi.com

١- فهرس الأعلام

١٥٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩٩ ،
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٨ .

(ب)

باديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله):
٢٤ ، ٢٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٤ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ،
١٠٥ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .

باديس بن المنصور (أمير إفريقية): ٣٩ .
باديس بن واري: ١٧٨ .
باطر (بطره): شولش: ٩١ ، ٩٦ .
ابن البراء: ١٦٩ .

يزلف (والى السوس): ١٩٦ .
بقراط: ٢٢١ .

ابن بكر: ٢٤ .

أبو بكر بن مسكن: ١٤٨ .

بلبار الصنهاجى: ١١٢ .

بلكين بن باديس سيف الدولة (والد عبد
الله المؤلف): ٢٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

بلكين بن حبوس: ٤٣ ، ٥٠ .

بلكين بن راوى بن زيرى: ٣٩ .

(أ)

أبو إبراهيم اليهودى (ابن نغزالة): ٤٧ ،
٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ .

ولد أبى إبراهيم اليهودى: ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٦ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٤ ،
١١٣ ، ١٦٦ ، ٢٤١ .

ابن الأحسن السجلماسى: ١٣٠ ، ٢٠٦ .
ابن الأحمر: ١٧٧ .

أبو الأحوص بن صمادح (صاحب
المرية): ٦١ ، ٦٢ .

أختا عبد الله المؤلف: ١٧٢ ، ١٧٥ .
الإذفونش: ٢٤٣ ، وانظر «الفونش» .

ابن أرقم: ٦٩ .

ابن الأصبحى: ١٢٢ .

ابن أضحي الكاتب: ٨١ ، ٨٢ .

ابن الأفتس = المتوكل

إفلاطون: ٢١ ، ٢٢ .

ألبرهانش: ١٥٣ ، ١٥٤ .

الفونش السادس: ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،

١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥١ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ .

(ت)

ابن تافنوت: ١٢١، ١٢٢
تميم بن بلكين بن باديس المعز (أخو عبد
الله المؤلف): ٦٦، ١١٥، ١٩٤،
١٩٥.

(ج)

الجاحظ: ٢٣٤.
جالينوس: ٢٢٢، ٢٢٨.
جعفر الخصي: ١٨٤، ٢٥١.
ابن أبي جوش: ١١١.

(ح)

حبوس بن ماكسن (أمير غرناطة): ٣١،
٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٧،
٤٩، ٥١.

الحجاج: ٢٢٨.

ابن الحديدى: ٩٩.

ابن الحسن النباهى (قاضى مالقة): ٨٢.

(خ)

ابن الخياط المنجم: ١٠٠.
ابن أبى خيشمة: ١٩١، ٢٥١.

(د)

داود بن عائشة: ١٣١.

(ذ)

ابن ذى النون: ٧٤، ٨٠، ٨٥، ٩٢،
٩٨، ٩٩.

(ر)

الراضى (ابن المعتمد بن عباد): ١٣١،
١٤٠، ٢٠٥.

أبو الربيع بن الماطونى: ٦٥، ١٦٣.

أبو الربيع النصرانى: ٨٦، ٨٧.

الرشيد (هارون): ٢٢٠.

الرشيد (ابن المعتمد بن عباد): ١٠٣.

ابن رشيق: ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٣٨،
١٣٩.

الرومى أبو النصرانى = ألفونش السادس.

الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالي):

٢٤٩، ٢٥٠.

ابن الريولة: ١٠١.

(ز)

زاوى بن زيرى: ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥،

٣٧

زاوى الصنهاجى: ١١٢.

زهير (صاحب ألمرية): ٥١.

ابن الزيتونى القروى: ١٩١.

(س)

سراج الدولة: ١٠٤.

ابن سعدون: ١٨٣، ١٨٨.

ابن السقاء: ٦٢.

سقراط: ٢١، ٢٣٣، ٢٣٤.

ابن سلمون: ١٤٧.

- أبو العباس الحكيم: ١٦٥ .
 أبو العباس (كاتب حبوس): ٤٢ .
 ولد أبي العباس: ٤٧ .
 ولد عباس (كاتب زهير): ٥١ ، ٥٢ .
 عبد الله بن القروي: ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٧ ، ٧٨ .
 عبد الملك (القاضي): ١٣٠ .
 أم العلو (بنت عم ماكسن): ٨٦ .
 علي بن أبي طالب: ٢١٩ .
 علي بن القروي: ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ .
 ابن عمار: ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ .
 عمر بن عبد العزيز: ٢٤ .
 (غ)
 الغافقي (أبو القاسم): ٢٤٧ .
 (ف)
 فرقان: ٤٩
 الفضل بن المتوكل بن الأفتس: ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
 (ق)
 القادر (حفيد ابن ذي النون): ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٨٦ .
 ولد القاضي (صاحب باغه): ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .
 قـرور: ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ .
 سماجة الصنهاجي: ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢١٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ .
 السماري: ٢٤٣ .
 ابن سهل (القاضي): ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٧٨ .
 السيد لذريق: ٢٠٩ .
 سير (الأمير المرابطي): ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ .
 سيف الدولة = بلكين بن باديس والد عبد الله .
 (ش)
 شـلاند: ٩٥ .
 (ص)
 الصحراوي (أبو بكر عم يوسف بن تاشفين): ٢٠٦ .
 ابن صمادح = أبو الأحوص والمعتصم صاحبا ألمرية .
 أبو الصمصام: ٢٠٦ .
 ابن الصيرفي: ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
 (ع)
 ابن عباد (المعتضد بن عباد): ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٦ .
 ابن عباد = المعتمد .
 عباد ابن المعتمد: ٩٣ .
 العباس بن المتوكل بن الأفتس: ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

مسكن بن حبوس المغرالى: ٧١، ٧٣،
٧٨، ٧٩.

المظفر (جد عبد الله): = باديس بن
حبوس.

المعتصم بن صمادح (صاحب المرية):
٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٩٣،
١١٣، ١١٤، ١٢٢، ١٣٢، ١٤٠،
١٧٦.

المعتضد = ابن عباد.

المعتمد بن عباد: ٩٢، ٩٤، ١٠٢،
١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١٢٠، ١٢١،
١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٣٩،
١٤٠، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٧، ١٧٨،
١٨١، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥،
٢٤١، ٢٤٩.

معد بن يعلى: ١٧٢.

المعز بن باديس (أمير إفريقية): ٣٩،
٤٠، ٥٩.

المعز = تميم بن بلكين بن باديس.

معز الدولة بن المعتصم بن صمادح:
٢٠٢.

مقاتل بن عطية: ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٥٠.

مقاتل بن يحيى: ٦٣.

المقتدر بن هود: ١٠٠، ١٠١، ١٠٣،
١٠٤.

ابن ملحان: ٩٣.

ابن القطان: ٢٤١.

ابن القليعى، أبو جعفر: ١٣٧، ١٣٩،
١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
١٥٨، ٢٤٣.

(ك)

كباب بن تميت: ٩٧، ١١٧، ١٢٠،
١٢١، ١٢٣، ١٢٥.

(ل)

لييب الخصى: ١٦٧، ١٦٩، ١٨٤.

لذة الخادم: ١٩١.

ابن أبى لولا: ١٦٤.

(م)

ابن ما شاء الله: ١٨١.

ماكسن بن باديس بن حبوس: ٥٧، ٥٩،
٦٤، ٦٦، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٤،
٨٦، ٩٧، ١١٩.

المأمون بن المعتمد: ٢٠٤.

المتوكل بن الألفطس: ١٣٢، ١٣٣،
٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠.

مجاهد (صاحب دانية): ٦١، ٦٢.

ولد مجاهد: ٨١، ١٠٠.

مخلوف بن ملول: ٧٦.

المرتضى: ٣٥، ٣٧، ٥٢.

ابن مرتين: ٩٣.

ابن المرة: ١٦٣، ١٦٥.

المستعين بن هود: ١٠٠.

منذر بن هود: ١٠١.

المنصور بن أبي عامر: ٢٧، ٣١.

المنصور بن أبي عامر (صاحب شرق
الأندلس): ٦١، ٦٢.

المنصور بن المتوكل بن الأفطس ٢٠٧،
٢٠٩.

المؤمن بن هود: ١٠١.

موسى: ٢١.

موفق (صاحب المدينة): ٥٣.

مؤمل ١٤٨، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،
١٧١، ١٧٦، ١٨١، ١٨٨، ٢٤٢،
٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢.

ابن ميمون (أمين يهود اليسانة): ١٦٣،
١٦٤، ١٦٥.

(ن)

الناية: ٦٣، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٠،
٨١، ٨٢.

نعمان: ١٧٠، ١٧٦، ١٨١.

(هـ)

ابن هود = المقتدر.

(و)

واصل العليج: ٨٣، ٨٦.

والدة المؤلف: ١١٩، ١٨٨، ١٨٩،
١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

ولد حجاج = يوسف بن حجاج.

(ي)

يحيى بن يفران: ٧١، ٧٦.

يدير بن حباسة بن ماكس: ٤١، ٤٣،
٤٧، ٤٩، ٥٠.

ابن يعيش: ٨٢.

ابن يكون: ١٧٧.

يوسف بن تاشفين أمير المسلمين: ١٣٤،
١٣٦، ١٥٧، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٦،
٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.

يوسف بن حجاج: ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣،
١٨١.

٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

بنو زيري: ١٥٨.	الإفرنج: ١٠٣، ٦١.
صنهاجة: ٣٨، ٤٠، ٤٩، ٥٠، ٧١،	البربر: ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٦١، ٧٩،
٧٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩،	٨٣، ٨٦، ١١٨، ١٨٣.
٢٤١.	بنو برزال: ٨٠، ٨٢.
بنو عباد: ٦٣، ١٠٢، ١٩٩.	بنو تاقنوت: ١٢٠، ١٢٣.
بنو اللوارنكي: ٩٩.	تلكاتة: ٧٦، ١١٢، ١٧٨.
لمتونة: ٢٤٢.	بنو حمود: ٦٠.
المرابطون: ٦٢، ١٠٤، ١٠٩، ١٢٩،	الروم أو النصاري: ٩٢، ٩٥، ٩٨،
١٤٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤،	١٠٥، ١١٤، ١١٩، ١٣١، ١٣٢،
١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٧١، ١٨٢،	١٣٩، ١٥٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٧،
٢٠٦، ٢٠٩، ٢٤٢.	١٨٥، ٢٠٩، ٢٥٠.
المغاربة: ٧٦، ٧٩، ٨٠، ١٥٠، ١٨٤.	زناتة: ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩،
بنو مغيث: ٩٩.	١٧٠.
اليهود: ٧٩، ١٦٣، ١٦٥.	

٣- فهرس الأعلام الجغرافية

- بياسة (Baeza): ٨٠، ٨١، ١٢١.
 تدلس (Delys): ٢٠٣.
 تدمير: ١٠٢.
 الجبل (نظر): ١٤١.
 جريشة: ١٢٢، ١٣٢.
 الجزائر (Alger): ٢٠٣.
 جزيرة الأندلس: ١٢٩، ١٣٥.
 الجزيرة الخضراء (Algeciras): ١٣٠، ١٣١، ١٩٣.
 جطرون (Jotró): ١١٧، ١١٩.
 جليقية (Galice): ٩٥.
 جيان (Jaén): ٣٤، ٧٣، ٧٨، ٧٩، ٩٧، ١١٩، ٢٤١.
 حمارش: ١١٩.
 الحمراء (Alhambra): بغرناطة: ٧٢، ١٦٣.
 الحمة (Alhama): ١١٦.
 حوز مؤمل (بغرناطة): ٢٥٢.
 دانية (Denia): ٦٢، ١٠٠، ١٠١.
 الرملة (La Rambla): بغرناطة: ٤٩.
 رندة (Ronda): ٢٠٥.
 ريه: ١١٦.
 رينة: ١١٧، ١١٩.
 الزاوية (La zulia): ٣٦.
 الزلاقة (Sagrajas): ١٢٩، ١٣٢.
- أرجذونة (Archidona): ١١٧، ١٢٠.
 إسطة (Estepa): ٩٧.
 إشبيلية (Séille): ٩٧، ١١٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٥٩، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٩.
 أشتنير: ١١٦.
 حصن آشر (Iznajar): ٣٤.
 إغرناطة = غرناطة.
 أساغمات: ٢٠٦.
 إلبيرة (Elvira): ٣٣، ٣٥.
 ألمرية: ٥١، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٧٥، ٩٣، ١١٣، ١١٤، ١٥٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٤٢.
 أنتقيرة (Antequera): ١٢٠.
 أيرش: ١١٧.
 باب الفخارين (بغرناطة): ٢٥٢.
 باب فتنالة (بمالقة): ١١٨.
 باغه (Priego): ٦١، ٨٤.
 بزليانة: ١١٦، ١١٧.
 بسطة (Baza): ٩٣.
 بطليوس (Badajoz): ١٣٢، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.
 بلنسية (Valence): ٩٩، ٢٠٧، ٢٠٩.
 بليش (Vrilllos): ٩٢، ٩٣، ٩٦.

١١٣ ، ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٦ ،
 ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٢ .
 فحص غرناطة : ٩٢ ، ١٨٥ .
 فنيانة (Finana) : ٧٧ ، ٧٨ ، ١١٣ .
 الفونت (Alfuenta) : ٥١ .
 قاشتره : ٩٧ .
 قامرة : ١١٩ .
 قبريرة : ٧٢ .
 قبرة (Cabra) : ٦١ ، ٨٢ ، ٨٤ .
 قرطبة (Cordoue) : ٦٠ ، ٦٢ ، ٩٢ ،
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ .
 قرطمة (Cartama) : ١١٩ .
 قرمونة (Carmona) : ٢٠٥ .
 القصر (حصن) : ١١٦ .
 قلعة أسطليير (Alcala la Real) : ٩٧ .
 قلعة حماد : ٢٠٢ .
 قولجر : ٤٩ .
 القيروان : ٣٩ ، ٤٠ .
 لركة (Lorca) : ٦١ .
 لوشة (Loja) : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ٢٤٢ .
 لييط (Aledo) : ١٠٤ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ،

سبته (Ceuta) : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٥٩ ،
 ١٧٨ .
 سرقسطة (Sarahosse) : ١٠٣ ، ١٥٣ .
 السطح (عمل) : ٣٦ ، ٤٩ .
 السوس : ١٩٥ ، ١٩٦ .
 شاط (Jete) : ١١٥ .
 شربة : ١٤١ .
 شرق الأندلس : ٧٨ ، ١٠٣ ، ١٥٣ .
 شقورة (Sehura) : ١٠٣ ، ١٠٤ .
 شليير (Sierra Navada) : ٣٦ .
 شنت ألقج : ٩٣ .
 شنت مرية (Santa Maria) : ١٠٣ .
 شنيلى (Genil) : ٣٦ .
 شليش : ٩٣ .
 صالحه (Zalia) : ١١٥ .
 الصحراء (Sahara) : ١٩١ .
 صخرة حبيب : ١١٧ .
 صخرة دومس : ١١٦ .
 طرلبش : ١١٤ .
 طليطلة (Tolède) : ٧٤ ، ٨٠ ، ٨٤ ،
 ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٢٩ .
 العدو (Maroc) : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩٩ .
 الغرية : ١١٩ .
 غرناطة (Grenade) : ٣٤ ، ٤٠ ، ٥١ ،
 ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٩ ،

مكناسة الزيتون: ١٤٦، ١٩٣، ١٩٤،
 ١٩٥، ٢٠٤، ٢٠٦.
 منت ماس: ١١٧.
 المتورى: ١١٣، ١١٤.
 المنكب (Almunecars): ٦١، ٧١،
 ١١١، ١١٥، ١٥١، ١٩٢، ٢٤٢.
 ميش (Mijas): ١١٩.
 النيل (Nivar): ١٥٩، ٢٥٠.
 نيمش: ١٢١.
 وادى آش (Guadix): ٥٥، ٦١، ٧٢،
 ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٣، ١١١،
 ١١٢، ١٤١، ١٥٣.
 اللسانة (Lucena): ١٦٣، ١٦٤،
 ١٧٧، ١٨١، ٢٤٩.

١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٥،
 ١٧٧، ٢٠٠، ٢٠٨.
 مارتش (Martos): ٩٧.
 مالقة (Malaga): ٥٩، ٦٠، ٦٣،
 ٧٦، ٨٢، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٣٠،
 ١٣٥، ١٤١، ١٧١، ١٩٤، ١٩٦.
 المدينة: ٣٥.
 مراکش: ١٣٠، ٢٠٦ (وانظر مروكش)
 مرسية (Murcie): ٩٨، ١٠٢، ١٠٤،
 ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٧٧، ٢٤٩.
 مروكش: ١٥٥، ١٩٤، ٢٠٦.
 مرية بلش (Velez Malaga): ١١٦.
 المشايخ: ٢٤٨.
 المطمر: ٩٧.

obeikandi.com

٤- فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة هذه الطبعة	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١- القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها	١٥
٢- حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به.	١٧
٣- قصور القياس دون عون من الوحي	١٩
٤- ضرورة التعليم والتجربة	٢٣
٥- التكوين السياسي للمؤلف	٢٤
٦- صعوبة الإنصاف التاريخي	٢٦
٧- المصادفة وأثرها في التاريخ، مثل المنصور	٢٧

الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري وأوليات

هذه الدولة، أيام زاوي بن زيري وجبوس بن ماكسن

٨- الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور، قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف	٣١
٩- استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها	٣٣
١٠- رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري اختطاط غرناطة	٣٤
١١- خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته	٣٧
١٢- رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً	٣٨
١٣- إمارة جبوس بن ماكسن	٤٠
١٤- المؤامرات التي دبرت لإستاد الإمارة إلى يددير بن حباسة موت جبوس	٤١

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نغزالة

- ٤٧ - ١٥ - أولية إمارة باديس بن حبوس وتعاظم الوزير اليهودى أبى إبراهيم
- ٤٩ - ١٦ - فشل المؤامرة التى دبرها يدير بن حباسة ضد باديس
- ٥١ - ١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
- ٥٢ - ١٨ - شخصية الأمير بلكين سيف الدولة والد المؤلف
- ٥٣ - ١٩ - نشاط يوسف بن نغزالة اليهودى ومؤامراته
- ٥٦ - ٢٠ - موت الأمير بلكين مسموماً
- ٥٩ - ٢١ - ما بلغ ابن نغزالة من المكان الأرفع
- ٥٩ - ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة
- ٦١ - ٢٣ - علاقات باديس ببنى صمادح أصحاب المرية
- ٦٣ - ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودى
- ٦٤ - ٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبوس (٢) من موت ابن نغزالة إلى نهايتها

- ٦٩ - ٢٦ - مؤامرة الوزير اليهودى ابن نغزالة، ثورة صنهاجة عليه وقتله
- ٧٤ - ٢٧ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صمادح
- ٧٦ - ٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد
- ٧٧ - ٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وقتنتها
- ٧٩ - ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان
- ٨٠ - ٣١ - استيلاء الناية على بياسة
- ٨٢ - ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ومقتله
- ٨٤ - ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة

الفصل الخامس

- إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب (١) مشاكل الأندلس
 ٩١ الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله
 ٩١ ٣٤- رفض مطالب الفونش السادس واشترائه مع ابن عمار
 ٩٣ ٣٥- المهادنة بين عبد الله وابن صمادح صاحب المرية
 ٣٦- مهاجمة الفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى
 ٩٣ المهادنة معه
 ٩٨ ٣٧- استيلاء الفونش السادس على طليطلة
 ١٠٠ ٣٨- استيلاء ابن هود على دانية، بعض أخبار بني هود
 ٣٩- ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أخرجه منها ابن رشيق،
 ١٠٢ أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع
 ١٠٤ ٤٠- عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشبيلية
 ١٠٥ ٤١- المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مذكراته

الفصل السادس

- إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب
 (٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين
 ١٠٩ ٤٢- عزل الوزير سماجة، ثم إجلاؤه واستقلال عبد الله في الأمر
 ٤٣- النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية، تعاقب
 ١١٣ أحداثه وحله
 ٤٤- توجيه عسكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف،
 ١١٥ ونصره إياه
 ١٢٠ ٤٥- ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تافنوت ونهايتهما

الفصل السابع

- إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس، مؤلف هذا الكتاب
 (٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاق ومحاصرة حصن ليط

الصفحة

الموضوع

- ١٢٩ ٤٦- مقدمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلس
- ١٣٠ ٤٧- إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش، احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء
- ١٣٢ ٤٨- تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد
- ١٣٢ ٤٩- موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونس السادس
- ١٣٤ ٥٠- يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة بدء الخلاف بين المتحالفين.
- ١٣٦ ٥١- عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، حصار حصين لبيب
- ١٣٧ ٥٢- محاصرة لبيب تصور فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين
- ١٣٨ ٥٣- النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيق
- ١٤٠ ٥٤- رفع الحصار عن لبيب، تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

الفصل الثامن

- إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب
- ١٤٥ (٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبيب، إجراءات دفاعية وسياسية
- ١٤٥ ٥٥- تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيب مسلك قرور
- ١٤٦ ٥٦- بعض المؤامرات وتخاذل القليعى
- ١٥٠ ٥٧- سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين تشييد الحصون
- ١٥٣ ٥٨- معاقدة عبد الله مع البرهانش وكيل ألفونس السادس
- ١٥٥ ٥٩- التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونس السادس وعقد اتفاق جديد معه
- ١٥٧ ٦٠- تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله يبرر مسلكه

الفصل التاسع

- إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب
- (٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة
- ١٦٣ ٦١- ثورة يهود مدينة اليسانة

- ٦٢- قضية زناتة ١٦٥
- ٦٣- انقلاب مؤمل وثورته فى لوشة ١٦٨
- ٦٤- وصف الثائر نعمات وسيرته ضد عبد الله ١٧١
- ٦٥- مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله ١٧٢
- ٦٦- حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٧٤
- ٦٧- رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أختى المؤلف ١٧٥
- ٦٨- تدخل الأمير عبد الله فى مسألة مرسية وغضب المعتمد ١٧٧
- ٦٩- إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسببته من قبل عبد الله وإيقاع
الخوف فى نفسه بعد رجوعها ١٧٨

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بلكين بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه السلطان المرابطى، سجنه، إخراجه من الأندلس ونفيه

- ٧٠- عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته إياه ١٨١
- ٧١- وصول الجيش المرابطى قبالة غرناطة ١٨٢
- ٧٢- الحالة داخل حضرة غرناطة ١٨٣
- ٧٣- لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم ١٨٥
- ٧٤- تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٨٧
- ٧٥- نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٩٣
- ٧٦- عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله ونفيه ١٩٤

الفصل الحادى عشر

عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

- ٧٧- موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٩٩
- ٧٨- حركات المرابطين على المرية ٢٠١
- ٧٩- توتر العلاقات بين الأمير المرابطى والمعتمد ٢٠٣
- ٨٠- الاستيلاء على قرطبة وإشبيلية ونفى ابن عباد. ٢٠٤

الصفحة

الموضوع

- ٢٠٦ ٨١- قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش
 ٢٠٦ ٨٢- عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس ومهلكه
 ٢٠٩ ٨٣- نشاط المرابطين ضد النصارى استيلاء «السيد» لذريق على بلنسية
 ٢١٠ ٨٤- تأملات في تقلب الأقدار

الفصل الثامن عشر

تأملات أخيرة بعد النفى

- ٢١٥ ٨٥- المؤلف والشعر
 ٢١٥ ٨٦- استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره
 ٢١٧ ٨٧- آراء المؤلف فى التنجيم
 ٢١٩ ٨٨- آراء طيبة فى الأغذية والنبذ
 ٢٢٤ ٨٩- رجوع الكلام عن التنجيم
 ٢٢٧ ٩٠- مسائل فلكية
 ٢٢٧ ٩١- تحديد العلوم الطبيعية والطب
 ٢٢٩ ٩٢- نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
 ٢٣٠ ٩٣- حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
 ٩٤- تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح
 ٢٣١ وزوال خيرات الدنيا
 ٢٣٣ ٩٥- يتحدث المؤلف عن أولاده
 ٢٣٥ ٩٦- توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
 ٩٧- يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته
 ٢٣٦ الخاصة

الملحق الأول

منتخبات من «كتاب البيان المغرب»

- ٢٤١ لابن عذارى المراكشى عن دولة الأمير عبد الله

الملحق الثاني

منتخبات عن «كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة»

للسان الدين ابن الخطيب

٢٤٧

١- ترجمة عبد الله بن بلكين

٢٤٩

٢- ترجمة مقاتل بن عطية

٢٥١

٣- ترجمة مؤمل

فهارس الكتاب

٢٥٥

١- فهرس الأعلام

٢٦٠

٢- فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

٢٦١

٣- فهرس الأعلام الجغرافية

٢٦٥

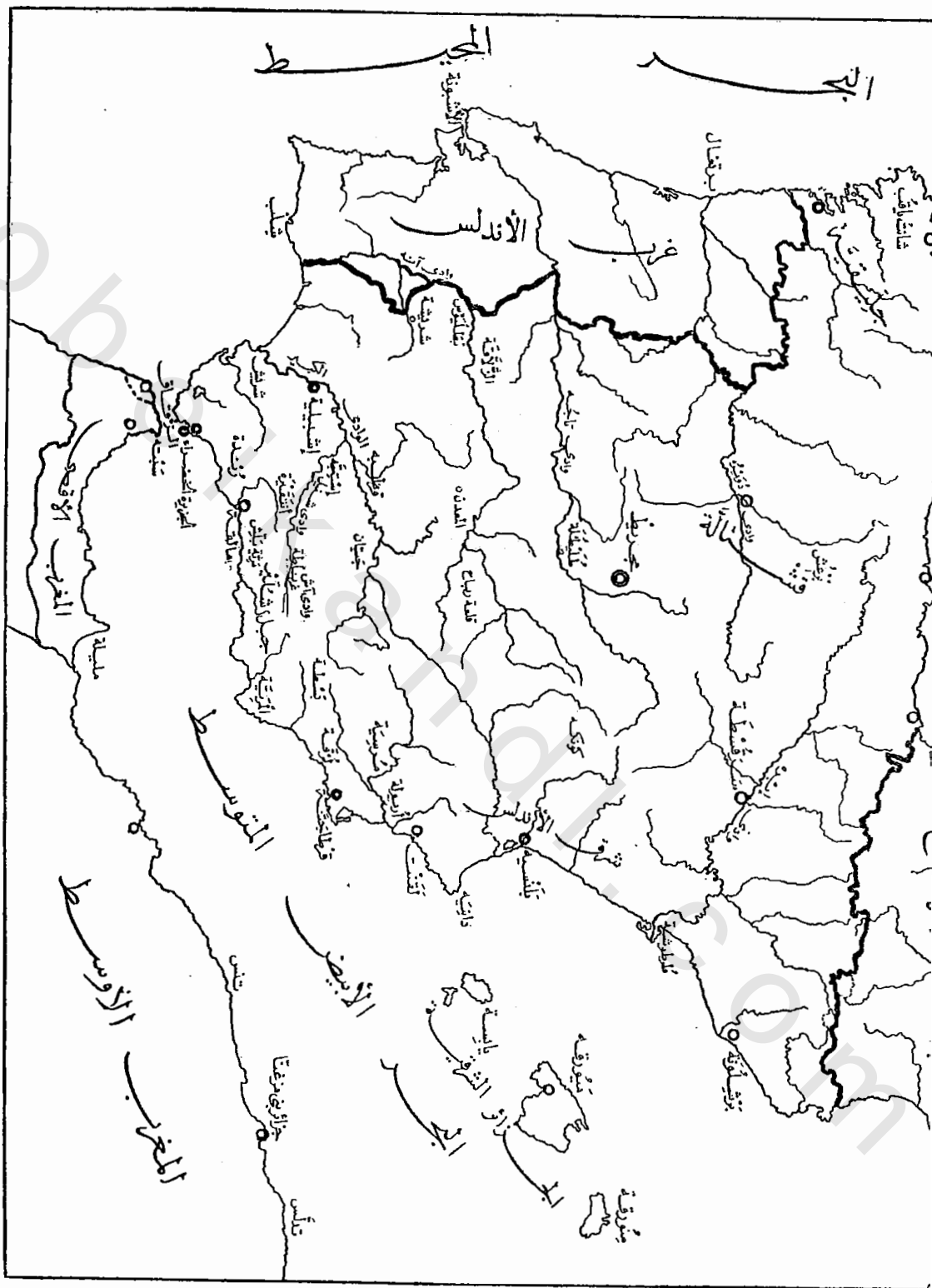
٤- فهرس الموضوعات

٢٧٢

٥- مراجع التحقيق

٥- مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ٢٠٠١م.
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى، دار الثقافة - بيروت ١٩٩٨م.
- تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١م.
- الروض المعطار للحميرى، بيروت ١٩٨٤م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى، القاهرة ١٩٥٦م وما بعدها.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة ١٩٥٢م.
- صفة جزيرة الأندلس، للحميرى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.
- قضاة الأندلس، المرقبة العليا، للنباهى، بيروت - بدون تاريخ.
- مجمع الأمثال، للميداني، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٥م.
- معجم البلدان لياقوت، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.



خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الطوائف